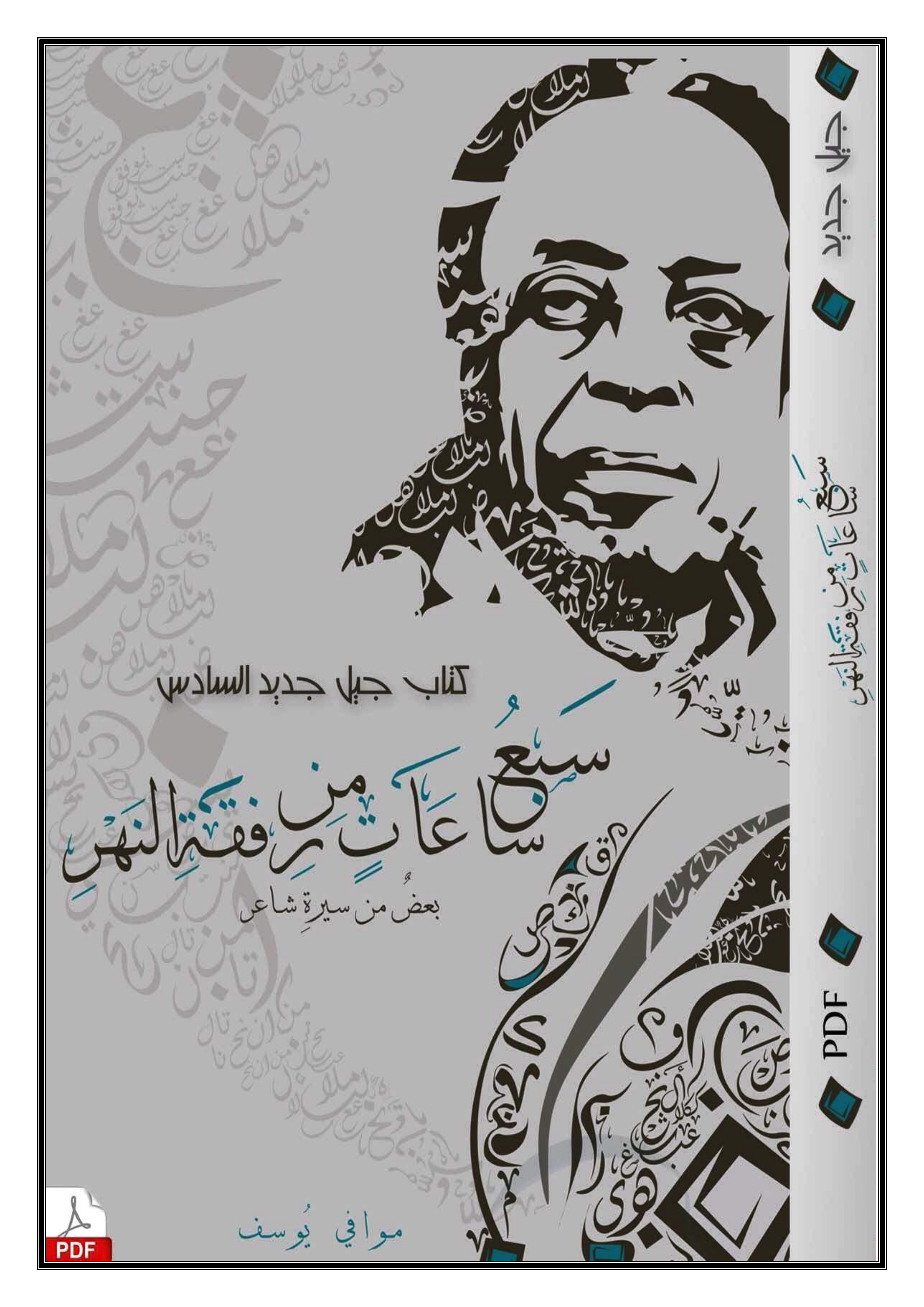

كتاب جيل جديد السادس
سبعُ ساعاتٍ من رفقةِ النهرِ
بعضُ من سيرةِ شاعر
موافي يُوسف
جيل جديد
سبعُ ساعاتٍ من رفقةِ النهرِ
PDF
PDF

- سبعُ ساعاتٍ مِن رفقةِ النَّهرْ (بعضٌ مِن سيرةِ شاعر)
- تأليف : موافي يوسف
- كتاب جيل جديد (٦)
- مايو ٢٠١٦ م
- تصميم الغلاف : عمر مصطفى الملك

الفهرس :

تقديم

سَأرْقُدُ فِي كُلّ شِبرٍ مِنَ الأرْضِ
أَرْقُدُ كالْمَاءِ فِي جَسَدِ النِّيلِ
أَرْقُدُ كالشَّمْسِ فَوْقَ
حُقُولِ بِلادِي
"...**مِثْلِي أَنَا لَيْسَ يَسْكُنُ قَبْرَا**

أن تقدم ملمحاً إنسانياً و جمالياً لشاعر اشتبكت شمسه الاستوائية بالقصيدة، كأنَّها نيازك تقذف سحراً يَتَأبْجَدُ طوطمية متوترةً على نسيج لغةٍ تأتلِقُ بعذوبةِ رقصٍ طقسيٍّ يتنفس غابةً تهيئُ نهارها البدائي لقداسةِ المعنى .

هذا يعني أن تدخلَ إلى كهفٍ رُسمت على جدرانه بهاءاتٌ بدم القرابين، أن ترى خطوط الوشم على سواعد أسلافك ، أن تختبر تعويذة اللون وعذاباته الممتدة على جسد التاريخ ، أن تفتح مصاريع روحك على مغامرة لا تنتهي. أن تخرج من جنون الطبول إلى انكشاف الدراويش عند دائرة الفناء .

بشغف الشاعر وكينونته في الكلمة تلقيت هذه المخطوطة التي أزعم بيقين كامل التسمية أنها تشكل لحظة ثقافية لوحدها، لحظة ستضيءُ قروناً تجربة شاعرنا العظيم محمد الفيتوري ، تلك الشعرية المتشحة بسمرة الأرض، بالغربة والعذابات المضيئة .

سبعُ ساعاتٍ من رِفقةِ النَّهرْ ..

(بعضٌ من سيرةِ شاعر)

هذه كتابة مختلفة بحقٍّ وبعمق ، كتابة ذات جهد عال ومقدر، كتابة إبداعية توثيقية/ جمالية، إنها جدارية الروح الإنسانية الكبرى .

عادل سعد يوسف
السودان- ٢٠١٦

مقدمة

في هذا الكتاب ، إنما أسلّطُ الضَوء على بعض النقاط ، في سيرة شاعرنا العظيم ، عن بعض آرائه الشخصية ، والتي سمعنا أو قرأنا عنها ، وبعض من مراحل حياته كشاعر ، كشاعرٍ فقط ، ليس كسياسي ، أو دبلوماسي ، أو أي وظيفة أخرى مارسها إثر تواجده بالسودان ، أو ترحاله بين مختلف الدول الأخرى . إذن ربما هنالك الكثير من هذا أو ذاك ، ولكني هنا بصدد (شاعِرية الفيتوري) ، أو لعلني أقول بعبارةٍ أدق (تخلّق الشعر في الذاتِ الفيتُورية) ..

أشير إلى أنني قد بدأت في هذا السرد قبل زمنٍ من وفاة الفيتوري ، وحينما تلقيتُ خبر وفاته آثرت أن أواصل سردي في الذات الفيتورية على أساس أنها حيّة في هذا الوجود ، ورغم أنه رحل لكنه لم يغلق نافذة العصر خلفه ، كما قال ، فالفيتوري حيّ باقٍ بيننا بأشعاره العظيمة والخالدة ..

وأنا هنا أريد أن أملّك القارئ بعض من الحقائق عنه ، تلك الحقائق التي قال عنها بذاته ولم آتِ بها من نسج خيالي ، بعد بحث وتقصّي ، أقول (بعض) وليس (كل شيء) عن الفيتوري ، ربما أعود وأكتب عنه مرة أخرى ، ربما ، فهو شاعرٌ حياته ممتلئة بالمواقف ، والحكايات ، والرؤى ، والانفعالات ، والصولات ، والجولات .. فالفيتوري نهرٌ كبير ، متشعِّبٌ وعميق !

مُوافي يوسف

الإهداء

إلى ،

نبعِ الطّهرِ ،

أمـي ..

إليه ،

إلى روحه ..

إلى الذي (هُناك) ..

إذ ما يزالُ حياً ،

باقياً فينا ..

إلى/ محمد مِفتاح الفيتُوري ، قدّس اللهُ سِرَّه ..

شكر خاص

لمن كانوا يمثلون يد العون الخفية .. سارية عبد اللّه عبد الغفار .. رنا عبد اللّه .. عبد اللّه محمد زين .. وللذي كان كفاً تربت على كتفي ويحثني على المضي ، للذي كان الضياء في عتمة الطريق ، العزيز (راشد يسلم) .

محبةً وتقدير ...

لن تجِدُوني ..

كما تجِدُون أساطيرَ من متّلُوني

نُقُوشاً على حَجَر

أو تصاويرَ مُبهَمةً في كِتابٍ قدِيمْ

أنا في الكائناتِ وفيكُم أُقيمْ .. !

الفيتُوري

(انـبـثـاقْ) ...

كـالـفـجـر تُـولـد ،
مـغـسـولَ الـضـيـاءِ نـقـيٌ !

إنه الثاني والعشرون من نوفمبر ، والشتاءُ مُعتمراً قبعته ، يتسكع فوق الطرقات ، ثم ما يلبث أن يذوب ويستحيل إلى موجات من ريح باردة وقاسية ، تتسكع فوق كل شيء ، فوق الأشجار على امتداد الطريق ، فوق الجدران ، أسطح المنازل ، المقاهي التي عليها عجائز يحتسون القهوة الساخنة متوشحون بالمعاطف .. تتسكع .. تتسكع فوق الشوارع الفسيحة ، والأزقة الضيقة ، الطيور المحلقات ، والحشرات المتقرفصة في أقبيتها .. تتسرب عبر الأبواب والنوافذ ، تموج في الداخل ، وتولول جائعة في الخارج ، متسكعة فوق كل شيء ، كضيف لا يكترث ، فتلسع الوجوه والمعالم بشحناتها الباردة القاسية ، فتبدو الأشياء ، بما فيها وجوه البشر ، منقبضة ، ومتجهمة ، وشاحبة ، مثل مقبرة قديمة عفا عليها الزمن .

عقارب الساعة هي الأخرى – هنا في الغرفة – تحسها منكمشة كأنما قد أخذ البرد منها ، فباتت تدور في بطء سلحفائي ، لكنها على كلٍ ، كانت تؤدي عملها على أتم وجه ،أراها تشير إلى الحادية عشرة ونصف الساعة قبل منتصف النهار .

الغرفةُ بناية صغيرة في منزلنا ، كأنما صممت هكذا لأجلي ، غرفة صغيرة تخصني ، أكدس فيها أشيائي الخاصة ، أشيائي التي أحب أن تكون أمام ناظري في أي حين ، كأنني أمام شجرة تحوي فاكهة متنوعة ، فأمد يدي ، وأقطف ما أشاء .. جهاز الكمبيوتر يقبع فوق طاولة مستطيلة ، مليء بأيقونات كثيرة ، صور تذكارية ، فيديوهات متنوعة ، برامج متعددة ، ومكتبة إلكترونية تحوي الكثير من الكتب على صيغة الـ(بي دي إف) ، لكني دائماً ما أحبذ الكتب الورقية ، لذا ثمة مكتبة بجانب جهاز الكمبيوتر تضم العشرات من الكتب بمختلف ألوانها ، قصصية ، شعرية ، روائية ، نقدية ، تاريخية ، دينية ، مسرحية وغير ذلك . أجد متعتي مع الكتب الورقية بخلاف تلك التي تقبع خلف الشاشات ، الورق أحسه مشبع بالدسامة ، تنضح منه رائحة الشيء الشهي ، تماماً مثل الخبز الساخن ،

أما الكتب الـ(بي دي إف) ، فلا أحس حيالها بشيء ، تبدو حافية الملامح ، ومتيبسة مثل خبز بائت على الرف .

جهاز الكمبيوتر والمكتبة على الطاولة المستطيلة الملتصقة بمنتصف أحد الحوائط ، ثمة كرسي يقبع أمام الطاولة المستطيلة ، وآخر على مقربة منه ، تربيزة خشبية متوسطة الحجم في المنتصف ، فرشت على سطحها فوطة قماشية مشجرة ، عليها علبة بها القليل من تمر القنديل، عليها كذلك علبة أخرى من حلوى ماركة (كِنت) .. وتربيزة أخرى صغيرة عليها (تورمسة) ماء صغيرة ، سريران صغيران بحجم الغرفة متوازيان على مبعدة من بعضهما ، مشدودة ملاءاتهما المصبوغة بالتركواز المشجر .. الغرفة شبه مظلمة ، إلا إذا أضأت مصباح الفلورسنت ، ثمة نافذة تطل على شارع فسيح ، ترسل عبر مناورها أشعة رفيعة وكسولة ، من شمس نوفمبر الوديعة ..

حين دلفتُ إلى الغرفة كنت قاصداً – كلما ماجت بداخلي، أشواقي ونزعاتي الإفريقية ، ومشاعري القلقة تجاه الرؤيا الإنسانية ، تجاه الحب المصطبغ بالعاطفة والحزن – كتاباً قديماً مذُّ الستينيات ، ذا غلافٍ عتيقٍ ، وورقٍ أصفرٍ باهتْ ، تنضح منه رائحةٌ مُتبَلَةٌ ومميزة .

الغِلافُ لديوانه الأول (أغاني إفريقيا) ، شاملاً كذلك دواوينه التاليين (عاشقٌ من إفريقيا و أذكريني يا إفريقيا) .. شمَمتُ أوراقَه كعادةٍ ألِفتُها مع الكتب ، خُصوصاً تلك القديمةُ منها ، النادرةُ المُعتّقة !

أضأت مصباح الفلورسنت ، شغّلت المروحة ، حملت الكتاب ، وارتميت في أحد الأسرة ، أسندت رأسي بالوسادة ، وفتحت الكتاب .. "منشورات دار مكتبة

الحياة – بيروت" ، عبارة كتبت أسفل الصفحة ، وفي الصفحة التي تليها كانت صورته .. شابٌ في ريعان شبابه ، خمنتُه في الثلاثينِ ونيفٍ ، كان حاد الملامح ، مقطباً حاجبيه ، عيناه الواسعتان شبه مزمومتان كأنما تحدقان في شي بعيد وعميق ، مرتدياً ما يشبه بذلة سوداء –لم تكن الصورة واضحة تماماً– وقميصاً رمادي أو أبيض ، حيث كانت الصورة سادة .. بِشرته سمراء قاتمة ، أقرب ما تكون للونَ الطّميْ .. على نحو ما ، كان عميقاً ، وواثقاً ، وإفريقياً ثوريّ الملامح والقسمات !

الكتاب رحلةٌ شعريةٌ من طِرازٍ فريد ، كما جاء في مقدمته ..

"بدأها الشاعرُ من حيثُ الأعشابُ تتكسّر تحت الأقدامِ المُوحلة .. وحيث الأقبيةُ الرطبةِ .. والتوابيتُ المكتنزة بالأحقادِ والمخاوف .. وحيثُ الأشجارُ السّوداءْ .. والظلالُ الحقيرةْ .. راح يواصلُ حركته الزاحفة خلال الدّهاليزَ ، المفاوِزَ ، والمشاعِرَ الصّفراءْ ، حتى توجَ ضوءُ النهارِ جبينَه الظافر " "١"

الآن ، الكتابُ أمامي ، في مُحاذاةِ وجهي تماماً ، أُحَدّقُ فيه ، ويحدّقُ فيّ .. كنت في دهشة من أمري ، لعلها تلك الرهبة التي تصيبني كلما توغلت في عوالم هذا الرجل .. الكتاب أحسه شيء حي ، وكما قال :

لـن تجـدوني ..
كـما تجـدون أسـاطير مـن متّـلوني
نقـوشـاً عـلى حـجر
أو تـصـاوير مبـهـمة في كـتـاب قـديم
أنا في الـكـائـنات ، وفـيـكـم أقـيـم ..

إذن ليس مجرد ورق حبيس بين دفتي غلاف .. ذاك الغلاف ذو اللوحة الملتهبة

، ذات خلفية شديدة العتمة .. تموج سحب رمادية في السماء ، وما يشبه جزيرة عائمة في طريقها للأفول إثر عاصفة أو طوفان عظيم ثائر حتى بلغ عنان السماء وما فوق السحب الرمادية . كان كتاباً ثورياً .. إفريقياً عارِ الصّدر ، أنفاسُه الجّمْر .. ملحمياً يتحدّى القيدَ والجلّاد .. شرّبه سَيِّدُه النّضالْ .. فطفِقَ يلعنُ القيدَ ، والسّجنَ ، والإستبدادْ .. حالماً بحريةٍ وإن دفع في سبيلها دمَه، وروحَه المُثخنة ! وأبدأ في التهام الصفحات ، قصيدة وراء قصيدة ، فأحسني تماماً ، في قلب ذلك الطوفان ..

فكانت (أحزانُ المدينةِ السوداء) ..

علـى طـرقات المـدينـة
إذا الـلـيـل عـرَّشـهـا بـالـعُـرُوق
ورشّ عـلـيـهـا أسـاه الـعـمـيـق ..

وفجأة .. صوتٌ يهتُفْ .. ينشدُ بأنفاسٍ مُثخنة .. أحسُّه قريباً مني .. بل جواري تماماً .. أطبقتُ على الكتابِ ببطءٍ ودهشة ، وبعينين مزمومتين وخاطر ذاهل أرخيت أذنيّ لأرهف السمعَ جيداً .. صوتٌ كأنما قادم من مغاور منسية ، مرهوب المفردة ، عميق حد امتلاء الصدى ، جليل حد القداسة ، مشوب بالقوة والحزن والجمال في آن ..

إنه هو ، لا بد ، نعم هو ، (محمد مِفتاح الفيتُوري)، إنّه صوتُه .. هتافُه .. إنّه ذاتُه !

قُـلـهـا لا تجْـبَـنْ ..
لا تجْـبنْ !
قـلـهـا في وجـهِ الـبـشـريّـة ..

أنا زُنجـيّ ..
وأبي زنجـيٌّ الجـدِ ..
وأمـي زنجيـة ..
أنا أسـود ..
لـكـنـي حـرٌ أمتـلكُ الحُـريّة
أرضـي إفريقـيا ..
عـاشـت أرضـي ..
عـاشـت إفريقـيا !

أنشدَ الصوتُ القوي الجهور ، وكأنه يُخاطبني ، بهُتافٍ مُثخنٍ ، واضِحٍ وثوريّ ، قبل أن يتلاشى فجأة كما قدُم ، مُحدِثاً في نفسي الدّهشة والارتباك .. فمكثتُ غير قليلٍ ، فاغراً فاهي على إثر دهشة ، وعيناي تجولان الغرفة بحثاً عنه ، عن الصوت .. عن الفيتوري ..

عدتُ، وفتحت كتابي ، وفي نفسي بعض الدهشة واللا تصديق ، ربما كان هذا الشيء من دولاب الأحلام التي تداهمك بين اليقظة والغفوة ، ربما ، عدت وأنا أتنقل من قصيدة لأخرى ، من ملحمة لأخرى ، بانفعالِ ثائرٍ ، وبأشجانِ درويش ! وأقرأ ..

ألـئنّ وجـهـي أسـودٌ
ولـئِنّ وجـهُـك أبـيـضٌ
سـميـتـنـي عـبـداً ؟
ووطِـئـت إنـسـانيـتي
وحَـقَـرت رَوحـانـيّـتي
فـصـنـعـتَ لي قـيـْداً !

اللهبُ يصلاني ،
النارُ تغشاني ..

وأقرأْ :

ماتَ ..
ومِلءُ رُوحِهِ المُسودّةِ المُحترِقة
ماضٍ يغطيه دمُ المشانق المُعلّقة
وصرخاتُ الثائرينَ في السِّجون المُطبَقة
وأوجُه العجائزِ الأليمةِ المُشقّقَة
وهُنّ يرفَعن إلى السماءِ ..
في أسى ذَليل ،
أذرعةً معوجّةً .. مثلَ مناجلِ الحُقول
وأعيناً يغوصُ فيها ظِلٌ مشنقة .. !

وفجأة ، وفيما يشبه الميتافيزيقيا ، أو هي عينها ، إذا به ينبثقُ من رَحِمِ قصيدة !

بدا في أول أمره مثل دخان يتعاظم ، ثم شيئاً فشيئاً تكاثف ، ثم تمثل أمامَ ناظِري ،

فيتورياً باذخاً كشمسِ إفريقيا.. فيتورياً بلون الطّمْي ...

وإذا تأرّجَ المكانُ بِعُرفِ الثائرِ الإفريقيّ

سيدي الفيتوري ..

يجلسُ قُبالتي ، كفوضى من الإدهاشْ والعَجَب !

"١" (محمود أمين العالم ، مقدمة ديوان أغاني إفريقيا ، ديوان محمد الفيتوري، المجلد الأول)

(شيءٌ من اللا تصديق ، في حضرة العظيم) !

يوم جئت ..
تحسّست الكائنات جدائلها البيض
واغتسلت باليقين لأول مرة
وأطلت من الصحراء نجوم
لأول مرة ..

وفي خضمِّ اللا تصديقِ الذي تغشّاني ، أخذت أذهبُ وأجيئُ وأدُورُ من حوله وأصابعي تعبُث بذِقني في بُطءٍ ، وعيناي تضيقان في إدهاشٍ وتفحُص .. أدنو من وجهه .. أبعدُ حيناً .. وهو مكانه ، يرقُبُني بعينين واسعتين بدتا خاليتين تماماً من الملامح ، وشفتين موغلتين في الصمت، بل لكأنما النطق لم يُخلق بعد –أو كما قال سِيدي الطيب صالح – كما لو كنا نؤدي دراما من نوعٍ ما ، دراما تأملية صامتة ، أو قل ضرباً من ضروب التراجيديا .. !

مرتدياً بذلةً رماديةَ أنيقة ماركة (تانبولي) الإيطالية وقميصاً أزرقاً ، متوشحاً مِعطفاً ذا لونٍ أسود ، ومنتعلاً حذاءاً أسوداً بدا أنه من ذاك الصنف الراقي .. كان جالساً على الكرسي دون أن ينبس بشيء .. وجهه الرحيب مثل نهر شارد ، قسماته مختلجة ما بين الحزن والكبرياء والألم .. يعتمر قبعة قماشية ، تلك القبعة التي تميز بها ، خمنت أن يكون في السبعين من عمره ، عيناه الواسعتان بدتا متعبتين ، تعب القادم من السفر ، تعب الموغل في وحشته ، لكن ، وعلى نحو ما ، بدتا ثوريتين قويتين ، حتى تحسَب أن صخرتين تجلسان على مِحجري عينيه ! "هل ، أنت ... الــ .. فيتوري حقاً ؟ الشاعر .. أم ، أنا أستوهِمهم ؟ " ، قلت ببطءٍ وكأنني فقدت القدرة على النطق السريع .

"أنا تمرُّد التعب .. أنا تجسُّد الذهول" ، يجيبني في خُفوتٍ وعيناه تجُولان بالغرفة لكأنما يُرسل الإجابة لفضائها ، "أنا أيها الفتى" ، يُردِف ، " قادمٌ من بلادٍ قصيّة ، من بلاد المغرب ، تلك البلاد البعيدة ، هناك ، في أقاصي الشمال الغربي من إفريقيا أكرِمني بكُوب ماء ، أكُن شاكراً ، لا يكون بارداً ؛ فأنا أعاني الالتهاب " ..

"أنت .. الفيتوري إذن ! " ، أقولها مبتسماً وأنا في غمرة دهشتي .. يومئ ، بينما تنزاح شفتاه قليلاً عن ابتسامة هادئة .

تورمسة الماء وجدتها فارغة ، فهرولت نحو الداخل، وأحضرت كوب ماء .. " هل أُضيفُ لك عليه قليلاً من السّكر؟ " ، أسأله ..

" حسناً ، لا بأس " ، يجيبني ..

يتناول مني كوب الماء المسكّر ، يشربه ، بل يمصّه مصاً ، وحين يفرغه ، أسكب له نصفَ كُوبٍ آخر ، ثم أسأله ، أو بالأصحّ أثرثر في دوامةٍ من التساؤلات .. وكان هو يستمع ، وقد إتكأ بظهره على الكرسي ، واضعاً إبهاماً تحت فكّه الأسفل وسبابةً في منتصفِ شفتيه ، مرسلاً إليّ نظرات بعينين متحفزتين للاستماع ..

ثم أثرثر .. ويبدا كأنه يستمع لا لإنسان، بل لأسطوانةٍ بَشرية :

"أستاذي ، أنا فخور بك" ، أقول ، "فأنت ابنُ هذه البلادِ الكبيرةِ الرّحيبة ، بل أنت ابنُ إفريقيا الثائرُ .. الصارخُ في وجه الجلّاد الأبيضِ .. والعاشقُ للحريةِ في سماءٍ فسيحةٍ لا حُدودَ لها .. أنت من تغنى للحب وللعذاب .. أنت من قدّس العاطفة والويلات .. أنت ، سيدي ، شاعر إفريقيا والعُروبة معاً ، وأحسبك من أبرزِ رُواد الشّعر الحرّ الحديث ، نسيج وحدك .. و ..

أووه يا إلهي ، إنه أنت فعلاً !

أتمنى أن لا تكون لحظاتنا هذه مجرد هرطقة أحلام " .

عَدَلَ من جلسته .. تنحنحَ .. أشعلَ سِيجارةً .. ثم قال، وماذا أيضاً ؟

قلتُ وأنا أجدُفُ نحو مرمى مُغاير ، محاولاً سبر غور ذاته ، والتماس بعض الجوانب الخاصة في حياته ، آرائه مثلاً ، وبعض من خصوص سيرته الشخصية :

" هناك من يقولُ بأن أمك مِصرية ، وأن والدك سُوداني الجنسية .. وصوتٌ آخرَ يقول بأن أمك سُودانية ، ووالدك لِيبي الجنسية .. وأياً يكن ، أجدني مع الصوت الثاني .. أوليس والدك ليبي ويُدعى الشيخ (مِفتاح رجب الفيتوري) ؟ صُوفياً وخليفةً في الطريقةِ الشاذليةِ العروسيةِ ؟ وقد هاجر في خَضِمّ الاحتلال الإيطالي قاصداً غربَ السُودان ، وبالتحديد دار مَسَاليت بالجنينة ؟ ثم أوليس هو من تزوج بـ(عزيزة علي سعيد) ، التي هي أمُكْ؟ ثم هاجر أبواك إلى الإسكندرية ، وهناك نشأت أنت بمصر ، وحفِظت القرآن صغيراً في الكُتّاب ، ودرست بالمعهد الدِينيّ قبل أن تنتقل إلى القاهرة لتتخرج من كليةِ الآدابِ بالأزهرِ الشريفْ ..

هل تُوافِقُني ؟

"نعم ، حقيقة ، كل ما ذكرته صحيحاً " ، يقول وهو ينظُر إليّ نظرةَ تفحُّصٍ لا تخلو من إدهاشْ .. كأنني مثلُه بَزَغْتُ من رحمِ قصيدةٍ أو جئتُه محمُولاً بريحٍ قادمةٍ من مفاوزَ بعيدة ، عبَرتْ بي نافذةَ هذه الغرفة ، وشَخَصَتْ بي أمامه ! فارتسمت في شفتيه ابتسامة حائرة ..

" والدي – رحمة الله عليه – كان ليبياً مهاجراً إلى دار مساليت " ، قال مُردِفاً ، "وكان خليفة من خلفاء الطريقة العروسية الشاذلية الأسمرية . وهو من فرع أولاد الشيخ ، من الفواتير ، إحدى قبائل البدو الليبية والمعروفة بالتقوى والصلاح ، ويقال أن الفواتير من الدراويش ، ومشهورون بالكرامات والمعجزات ، ويخافهم الليبيون ، فيقولون فيهم : (الفواتير لا تديروا ما يديروا ، ولا تنهاهم عما يديرو) ، هكذا باللهجة الليبية "

- "وما معناه؟ " ، أساله

- أي (الفواتير لا تفعل مثل ما يفعلون ، ولا تنهـهم عما يفعلون .) " ، صمت قليلاً وقال ، " وهو كما ذكرت، من تزوج بـعزيزة علي سعيد ، أمي ، رحمها الله .

(الجَّـدةُ السَّـوداءْ) ..

عزيزة علي سعيد ، والتي هي أُمُك كما أكدت ، لا شك في ذلك ، وأنها التي تزوجت بالشيخ مِفتاح رجب الفيتوري ، الليبي المهاجر لتلك البلاد ، توافقني أيضاً في هذا .. حسناً ، يُقالُ بأنّ والدتُك تلك تنحدرُ من أسرةٍ شريفة ، من قبيلة الجَهْمه ، والدُها الشريف (علي سعيد) ، يُقال عنه اشتغاله بتجارة الرقيقِ والعَاج ، إضافة للذهب والحرير ، وكان في تجارته يسلك (درب الأربعين) المشهور ، الذي يربط ما بين غرب السودان وليبيا . كما يُقال عن صِلاتهِ بسلاطين إفريقيا والسودان .

هذا الشريف علي سعيد – لو تسمح لي أن اسميه- تزوج بجاريةٍ وأنجبَ منها والدَتك .

أتوقف قليلاً ، أقرأ ما توحي به عيناه ، كانت حافية من التعابير ، بل كان ساهماً ، ينظر نحوي كأنني محض فراغ ممتد أمامه .. أستطرد ..

و..

وأن تلك الجاريةُ السوداء والتي كان اسمُها (زَهْرة) ، والتي هي جدتُك ، أسهمت إسهاماً كبيراً في امتلاء وعيك وتشكيله ، فكانت لحكاويها ، وقصصها ، وأساطيرها ، العامل الفعّال في تحفيز وعيك ، وتشكيل عالمك الداخلي المائج بكل تلك الرؤى والانفعالات ؛ حيث يقال بأنها أورثتْ فيك تلك العقدة التي لازمتك طيل حياتك، عقدةَ العُبودية . فلازمك هذا الشُّعور ، والتصق بك ، ونحت نقشه في دواخلك ، فكان له الحضورُ الطاغِي في تداعياتِك ورؤاك الشِعرية ..

– هل توافِقُني في هذا ؟

عدل هذه المرة من جلسته في بطء شديد ، كالذي أفاق من غفوة عميقة ، لا أدري ، ربما جدَّدتُ جراحات الرجل الغائرة ، جراحات لربما اندملت ، لكن عن هشاشة ، ما جعلها تطفُو من فينةٍ لأخرى في أسىً ، مُجترّة معها الذِكريات البعيدة الأليمة ، اللحظات القاسية ، نابشة بأصابع خرافية مقبرة ترقد هناك، بعيداً في أغوار روحه المعذبة المحترقة .. !

شيءٌ ما تطفّل بحلقه ، أدخله في نوبةٍ من سُعالٍ حاد ، حتى أدمعَت عيناه وهو يُربتُ بكفّه على صدره ، فبدا وجهُه التّعِب هذه المرة أكثرُ إيلاماً .. بدا أنه يعاني الالتهاب والسعال الحاد .. خرجتُ .. وعدتُ بأقراصٍ من (الفُلوتاب) ، وكوبِ ماء .. مددتهم إليه .. أخذ واحدةً .. قذفها في فمه .. سكب عليها الماء دَفعةً واحدة .. ثم تنهد عميقاً ، وبعد أن تغشّته بعض الراحة قال معيداً لثرثرتي مِجدافَها :

"معذِرةً يا فتى ، فالأمراضُ ما فتِئت تتربّصُ بي ، لكن الحمد لله على كلٍ" .. "حسناً " ، قال بصوتٍ تعِب ، " أظنك كنت تحدثني عن جدتي الطيبة الرحيمة (زَهْره) .. هي فعلاً من تكشّفت بصيرتي عبرها عن آلامِ الإنسانِ الإفريقي .. هي من وضعت البِذرةَ النارية في رُوحي ، كما يمكن أن أقول ، وأشعلتني .. ! "

"وهناك حقيقةٌ أريد أن أُخبِرُك عنها" ، يقول مُدَّاركاً ، "جدتي تلك يا فتى كانت تنتمي إلى إحدى أهم القبائل الإفريقية ، تلك القبائل الواقعة بين جنوب السودان وغربه ، وقد كان أهلُها فِرساناً ، وجدُها زعيمُ قبيلة .. !!"

"حدثتني ذاتَ مرةٍ" ، يقول شارداً بذهنه ،"في إحدى الليالي المُقمرة ، وأنا أتوسّدُ حِجرها مُرسِلاً أنظاري نحو النُجومِ البعيدة المتناثرة في السماء العظيمة ، أتأمل درب التبانة ، الذي تتناثر عبر شريطه بعض النجيمات الكبيرة ، تبدو قريبة ، مثل ثمار الباباي ، ما إن أمدد يدي ، بالكاد أقطف إحداهنّ .. حدثتني جدتي قائلةً

بصوتٍ واهنٍ مشروخٍ ، يخرُج من فمها مُتقطّعاً على دَفعاتٍ كأنما تلتقطه من الفراغ التقاطاً ، لكنه ، وعلى نحو ما ، كان واضحاً بما يكفي لسماعها .. وبدأت الجدة حكايتها ..

" كان الوقت عصراً ، وغيوم داكنة ، ترقد في صفحة السماء ، مثل طيور عملاقة تحلق في بطء .. مجموعة كبيرة من القطاطي تتألف منها القرية ، وأشجار عملاقة تلتف حولها مثل طوق .. وكان ثمة نساء يحملن على رؤوسهن المعتمرات بلفافات قماشية حزماً ضخمة من الحطب ، وأخريات يحملن مواعين ممتلئة بالماء ، يثرثرن فيما بينهن ، بينما يتبعهن أطفالهن العرايا وهم يتقافزون من خلفهن مثل القرود .. عجائز جالسون أمام القطاطي ، بعضهم فاغر فاهه كأنما يريد أن يقول شيء ، لكن فمه يظل مفتوحاً كبوابة متهالكة ، يحدقون بلا انفعال في الأشياء حولهم .. وآخرين بدأوا يثرثرون مع أحفادهم ويضحكون بسعادة بالغة .. ثمة من يتحلقون حول مجموعة فتيان وفتيات ، تنبعث من مركز الحلقة أصوات أبواق غليظة ، وإيقاعات طبول صاخبة ، والمتحلقون حولهم يصفقون حيناً ، ويصرخون بإعجاب أحياناً أخرى ، جوقة في وسط الحلقة ، راقصون وراقصات يضربون بأرجلهم المحجلة الأرض بقوة في مهرجان حافلٍ من الرقص ، فيختلج الرنين مع إيقاعات الطبول وصوت الأبواق ، وتطفو ذرات من غبار ناعم ، فتعج من فوقهم .. "

تصمت جدتي ، تكح كأنها اشتمّت ذرات الغبار الناعم فعلاً ، تربت على رأسي ، ثم ترفع رأسها حيث أحدق في النجوم ، وتواصل حكايتها كأنها تقرأ ما تقول من صفحة السماء :

كنتُ في طريقي كي أجلُب الماء من حفيرٍ يبعد قليلاً من قريتنا .. كنت وقتها صغيرةً في عمري .. وحين بعدت من القرية ، وبدت أصوات الطبول والأبواق تخفت شيئاً فشيئاً .. حينها ، وعند طريق ملتوٍ قاتم خالٍ من خلق الله ، برز لي في الطريق ما كنا نطلق عليه اسم الـ(جلابي) .. انحنى نحوي كأنما يريد أن يلقي عليّ تحية واختطفني دون أن ينبس بكلمة ، وهو على صهوةِ جَوادٍ يمتطيه .. أردفني خلفَه .. واجتذب اللجام على عجل ، فانطلقَ الجَواد يشق طريقه ، وحوافرُه تنقر الحصى بإيقاعاتٍ ذاتِ وتيرةٍ متحفزةٍ نشطة .. "

تصمت ، تصمت جدتي كثيراً ؛ كأنها تريد أن تلقي على مسامعي خبراً ثقيلاً ، تتنهد قليلاً ، ثم تقول :

"وحين وصلنا لمقصدِ الجلابي ، أهداني إلى جدِّك .. "

"من .. هو .. جدي هذا ؟ " ، رميت عليها السؤال ممتلئاً بالحَيرة ، رميته بعينين مزمومتين ، وقد أشحت بنظري عن النجوم ، محدقاً في وجهها العجوز .. قالت :

-" جدُّكَ السيد علي بن سعيد بن يعْقوب الشّريف .. تاجرُ الرقيق ! "

هنا توقفَ لحظةً عن الحكي ..

صمتَ ، كأن الصمت أكثر امتلاءاً من ما سيقوله .

استمعتُ وأنا أجول بخيالي في تفاصيل الحكاية .. تنهد عميقاً ، أرقُبه في صمت.. يُخرج علبة سجائره مرة أخرى .. يأخذ واحدة ، تستقر بين شفتيه ، يخرج من جيب بِذلته العُلوي زناداً راقياً ، يضغط عليه ،

ينطلق لهبه يأكل مقدمةَ رأس تلك السيجارة ، ثم يجذُب منها نفساً عميقاً ، يأخذ دورته ثم ينفثه ، يتمدد دُخانها محلقاً بأشكالٍ رماديةٍ في الفراغ ، وقال :

"وكان ذلك هو حديثها ، فعندها ، عندها فقط ، شعرت وكأنني أقف على صراط ! على صراط .. صراطٍ ما، بين الحرية والعبودية ! فهذه الجدة مُستعبَده ، وهذا الجد تاجر رقيق ، وأنا طفلٌ صغير لا يعرف ما معنى العُبودية .. ولا معنى الحُرية !

فشعرت حينها بحيوات مرعوبة ، تصرخ في داخلي" !

تعايشت مع الحكاية للدرجة التي تغشّاني فيها نعاس جارف ومُلِح .. وبدت الأشياء تتصايح وتتماوج في دماغي .. ضحكات الأطفال ، نظرات العجائز الخاوية ، أصوات الطبول والأبواق ، الرقصات الجنونية ، ووجه الجدة العجـوز .. ودونما وعي ، وجدتني أغوص في دُولاب النوم .

في البـدءِ كان السُّكونُ الجليـلْ

وفي الغدِ كان اشتعالُكْ ...

(ثمةُ شُعاعٍ يستحيلُ لأصابع عظيمة ، يتلوّى كأفعى ، ينبُش مقبرةً منسيّة من ذاكرةٍ مسفُوكة .. يستطيلُ كخِنجر البدويّ !)*

أصحُو فزعاً ، مُتهدّجة أنفاسي ، جبيني يستحيلُ لغيمة خرافية تنزّ بالعرق ، ما كان ذلك ؟ لا أدري .. ألتفتُ صوبه ، أراه غارقاً لكأنما في دوامةٍ من نوم أبديّ ، في كرسيه ما يزال ، نهضت ، عدلت من رقبته المائلة ، خلعت قبعته القماشية المستديرة .. بدت كومة من الشيب تميز شعره ، عيناه مطبقتان كستار مسرح مُسدل على مشهد حزائني .

كنت مُتعباً ، يداهمني فُتورٌ يُلحّ عليّ بالنوم ، ودون وعي غُصتُ مجدداً في الدوّامة ...

(غيمٌ خريفيّ يتكاثف ، طيور الكركي بمناقير مجيدة تحلق ، غسق بهيّ يستدير ، فُوهةٌ على سديم الأرض تتسع ، تنفتح حتى تستحلب انتباهه بخيوط ، لطالما ابتلع تركيزه سقوط الشمس اليومي ، ثمة ريح بغبار صحراوي تعبر ، رائحة من العرق الجبلي تصطكّ بسفوح المغارات المنسيّة ، ومن الجهة المعكوسة ينسدل غطاء كثيف من قماش الآلهة الكوني ، صديد أصفر ينسرب من الذاكرة ، متكئ على حجر آيل للسقوط ، يطارد العصافير المحلقة بعيونه ، رتل من القمريات ، ثلة من طيور البوم ، مالك الحزين يغني وبما يشبه البكاء يدفن المسارات السماوية ، نحيب الأشجار الجنائزي يسد الأفق ، يشيح بوجهه بعيداً ، ثمة قطيع من الأغنام الصحراوية يستشري في الجبل ، فتى بملابس رثة يقذف كتلاً من الحجارة والحصى ، وخلف القوز الرملي امرأة ضخمة تقتلع غابة كثيفة من شجر المسكيت ، فؤوس بأظافر عظيمة تغرق رأسه بالدم ، من فرط ما تستطيل الذاكرة ، يتعرق –الفتى– يمسك حربتين طويلتين بيديه ، يغرسهما بحواف بئر تبتلع الهواء المتعثر والأشعة

الصفراء المحترقة ، قدماه تتأرجحان، تتسربلان في الفراغ المتراكم ، يطرقع الأصابع ، ينظر بعينين ذاهلتين في الفوهة الدائرية التي يجلس بحوافها . لوهلة سيرى طائراً برأس أصلع ، وريش مُقتلع ، ومعصوب العينين ، يتجول ، ينقر في السفوح الجبلية ، يستدير ، يتخبط ، يقفز محاولاً الطيران ، ثم يسقط سقوطاً مريعاً داخل البئر . يرفع رأسه ، عيناه تتسمران في المدى ، من دغل بعيد ، غبار هائش ينبعث ، يحك رأسه ، يتذكر ، صوت الطبول يرتفع لأعلى ، أغنيات النساء تتمدد ، صوت ملائكي يطفو ، كؤوس المريسة المقدسة ، أقراط دائرية تطل من خلف الرؤوس البدوية ، خلاخل نحاسية تُصدر صفيراً طويلاً يخترقُ الجدار الخشبيّ ، ويختفي .

يتابع سلسلة رجال ، يتأبطون حراباً ورماحاً تبرُق ، جلود حيوانات برية تغطي أجسادهم ، أقراطاً بلون أصفر تلمع ، تستدير بأيديهم . ثمة هاوية عظيمة تقف في الجهة المقابلة ، بخطى بطولية يسيرون نحو الصرير المنبعث منها ، يخلعون رؤوسهم واحداً تلو الآخر ، يرمون الرؤوس المقطوعة بحوافها الطرفية ، ثم يعبرون .

ثمة أطفال عراة يتمايلون في الخلف، يحملون رؤوساً بعيون مذعورة بإناءٍ فخاري متسع ، يترنحون ،وبِركة من الدم تسيل من رؤوسهم المقتلعة ، ثم يسقطون)* .

– كنت جالساً على ظهر ما يشبه البغل، في قمة جبلية عالية تكاد تعانق الغيم الخريفي المتكاثف ، وكانت كل تلك الرؤى واضحة ، أرقُبها من مكاني لكأنها تنبع من شاشةٍ عظيمة –

والفتى ، (يتابع العبور الغريب لهذا الحشد البشري ، من أعلى تلة متوارية خلف الشجر اليابس المتراص كالصراط المستقيم ، يُحدّقُ نحو الهاوية السوداء ، صفٌ

لا حد له من الآدميون يسقطون ، كبار سن عجزة ، مسنُون ، أطفالٌ ، ونساءٌ يغرسن أصابعهن أسفل الرأس ، يقتلعن الرأس ، يتركنه معلقاً فوق حراب شاهقة ، ويبتلعهن الستار الكثيف المنسدل داخل الهاوية .

لوهلة ، يرى جدته ، تزحف كدودة رملية تتقدم ، ظهرها ملتوٍ ، مُسندة يديها على حطب من نبات القنا ، ثمة شارب أبيض كثيف يعتلي شفتها العليا ، تمشي برتابة مريبة ، تتعثر حتى تكاد تهوي ، تستقيم ، تضيء الطريق بابتسامة طفيفة ، ومن خلف فمها الجاف ، تطل أسنان بيضاء ومتشابكة ، تزيل كتلاً من الحصى والصخر المتكسر ، ترمي عصاتها ، ترفع رأسها لأعلى ، تقتلعه من رقبتها الرازحة تحت سياط التاريخ ، وشفتاها ذاتا الابتسامة النورانية مفتوحتان وكأنها تفتح للريح مساراً جديداً ، تقذف الرأس العجوز نحو حشائش خضراء تنمو ، ثم تسقط سقوطاً مدوياً داخل الهاوية

يضربُ بيديه رأسَه المليء بالأوشام ، يُهزهِزُه بعنف ، محاولاً طرد الهلاوس السّعرانة التي تطارده ، ينتصبُ واقفاً ، يُركّزُ نحو الصورة الأخيرة التي رآها : جدته مقتلعة الرأس والحفرة تبتلعها ، يصرخ صرخة جنونية ، طاردت الطيور والكائنات في مخابئها ، موجة من الرياح تسري ، حاملة معها رائحة الطمي والبحر ، ثمة غناء رصين للعصافير الخريفية يتمدد ، حتى عم الغابة كلها ، ينظر صوب شجر تبلدي محترق ، وقطيع من النمل الصحراوي يتسكع فوق أغلفته السوداء ، ومن تحت رُكام الحشائش يسمع سيمفونية حزينة للضفادع والجنادب البرية ، يتقدم نحو تراب متراكم يشبه فيلاً ترابياً ضخماً بنته الرياح بأصابعها ، يعتليه ، يرفع حريته وكأنه سيغزو العالم ، وباليد الأخرى يلوح للفراغ الكثيف كمن يتوعد شخصاً في الجهة المقابلة ، يقذفها في الفضاء ، يبكي بصوت متشنج ومخنوق ، يضحك بهستيريا ، يخلع ملابسه المُحاكة من جلد الثيران ، يُمسكُ ثعبانه البشري بيديه ،

يُهذي ، يتحدث وحده ، وفي ذاكرةٍ متفجرةٍ برأسه ، يصنع من الطين البحري رجلاً دميماً بملابس بالية وأسمال ، يلبسه بِنطالاً بلونٍ أخضر ، ويُمسكه البندقية ، يقول له : أنت الحرب إذن !! .. ثم يغرقه في بركة من البول المتعفن .

يهبط من التلةِ الترابية ، عارياً وأشياؤه تتأرجحُ في الفراغ ، يجثو على رُكبتيه ، يزحف متجهاً نحو مغارةٍ مليئةٍ بالرماد وبقايا عظام بشرية ، وطائر البوم يتجول على مقربة منها ، يقترب نحو الباب الصخريّ المُوصد ، يزيحه بيديه ، يدلُفُ إلى الداخل ، يستلقي فوق الركام الرمادي رافعاً رأسه صوب سقف المغارة البعيدة ، يُلقي رأسه فوق يديه ، وقدماه معقُوفتان فوق بعضها) *

– ثمّ في فُجائيةٍ مُفزِعة ، يستحيلُ إلى كَومةٍ من رماد ، يتصاعد منها دُخانٌ صوب السّقف ، يتسرّب عبر فجواته للفضاء القابع خارج المغارة ، تصطاده أصابع طويلة مُرسلة من الشمس فيبدو الدخان الرمادي مثل عفاريت مهرولة في فزع !! –

أصحو مذعوراً ، وصرخةٌ عظيمة حُبِست داخلي ، وإذا العرقُ قد بلل وسادتي ، وقلبي يركُلُ بوتيرةٍ عالية ، تماماً مثل تلك الطبول !

وإذا به جالساً على كرسيه ، يرقُبني بعينيه العميقتين بفضول غريب ، خُيّل إلي أنه أدرك تلك الهلاوس ، لا أدر لما لم يوقظني من ذلك الفزع بينما تصارعني تلك الهلاوس والكوابيس ، أم أنه كان ينتظرني حتى آخذ كفايتي منه ، ثم يسألني في هدوء : ماذا بك ؟

أحكي له بتهويل ما شاهدته ، تعتلي وجهه الدهشة ، بدت تفاصيل وجهه تشي بفجيعة الإنسان المكلوم ، تبرُقُ عيناه ، تندفنان تحت موجة طاغية من الحزن وتدمع .. أتساءل في نفسي عن ماذا أصابه ، ما الذي أحزن الرجل ، أم لعل في

مخيلته ثمة مقبرة من زمن بعيد ، ومنسية تحت أغوار سحيقة من تراب الذكريات لمواجع أليمة وأحزان لا متناهية ..

هل حمل ذلك الفتى بعض تفاصيله ؟ أم نبشت تلك الجدة صورة جدته "زهرة" ؟ فداهمته عاصِفةُ الأحزان ، والتراجيديا السوداء عن الصراعات ، التضحيات ، الحروب والدماء ، والعذابات اللا متناهية !!

هل .. ؟

لكنه قطع شريط تساؤلاتي تلك ، حين نهض من كرسيه لأول مرةٍ مُذّ أن جلس عليه منذ انبثاقه لي ، جثا بركبتيه على الأرض ، وفي قداسةٍ مهيبة ، سجد طويلاً ، بكى كثيراً وتنهد ملء صدره ، وحينما عاد وجلس قال بصوتٍ تعب ممتلئ بعاطفةٍ جيّاشة وحزن جليل :

التُّرابُ المُقدّس .. التّرابُ المُقدّس !

ثم تلا في خشوعٍ مَهيب :

وسِدِ الآن رأسك

فوق التراب المقدس

واركع طويلاً لدى حافة النهر

ثمّةَ من سكنت روحُه شجر النيل

أو دخلت في الدّجى الأبنوسي

أو خبّأت ذاتها في نُقوش التضاريس

ثمة من لامست شفتاه

القرابين قبلك

ملكةُ الزُرقة الوثنية

قبلك

عاصفةُ اللحظات البطيئة

قبلك

طقسُ الوجوه المدلاة ،

في مهرجانِ المشانق

قبلك

يا أيها الطيفُ ،

منفلتاً من عصور الرتابة والمسخ

ماذا وراءك في كتب الرمل؟

ماذا أمامك في صحف الغيم

إلا الشموس التي هبطت في المحيطات

والكائنات التي انحدرت في الظلام

وامتلاؤك بالدمع حتى ،

تراكمت تحت تراب الكلام

وسدّ الآن رأسك

مُتعبةٌ هذه الرأس

مثلما اضطربت نجمةٌ في مداراتها

أمس قد مر طاغية من هنا

نافخاً بوقه تحت أقواسها

وانتهى حيث مرّْ

كان سقف رصاصٍ ثقيل

تهالك فوق المدينة والناس

كان الدمامة في الكون

والجوع في الأرض

والقهر في الناس

قد مر طاغية من هنا ذات ليل

أتى فوق دبابة

وتسلق مجداً

وحاصر شعباً

غاص في جسمه

ثم هام بعيداً

ونصب نفسه للفجيعة رباً

وسدّ الآن رأسك

غيمُ الحقيقة دربُ ضيائِك

رجع الترانيم نبعُ بكائِك

يا حراس الصدفات البعيدة

في حفلة النوء

يشتاقُك الحرسُ الواقفون

بأسيافهم وبيارقهم

فوق سور المدينة

والقُبةُ المستديرةُ في ساحة الشمس

والغيمة الذهبية

سابحة في الشتاء الرمادي

والأفق الأرجواني والأرصفة

ورؤوس مُلُوك مرصّعة بالأساطير

والشعرِ

والعاصفة

أمسُ جئت غريباً

وأمسُ مضيت غريباً

وها أنت ذا حيثما أنت

تأتي غريباً

وتمضي غريباً

تحدّق فيك وُجُوه الدخان

وتندو قليلاً

وتنأى قليلاً

وتهوي البروق عليك

وتجمد في فجوات القناع يداك

وتسأل طاحونةُ الريحِ عنك

كأنك لم تكُ يوماً هناك

كأن لم تكُ قطْ يوماً هناك

وسّد الآن رأسك

في البدءِ كان السُكون الجليلْ

وفي الغد كان اشتعالُك

وسد الآن رأسك

كان احتجابُكْ

كان غيابُكْ

كان اكتمالُكْ

وسد الآن رأسك

هذا هو النهرُ تغزُله مرّتين

وتنقُضه مرّتين

وهذا العذابُ جمالُك !

" * " ما بين الأقواس، من رواية (جمجمتان تطفئان الشمس) للروائي السوداني الشاب منجد باخوس

ولدتُ فوق عتبات الصّمتِ .. والغَضَبْ !

إنها الأوجاع ، الآلامُ يا سيدي ، رُفاتُ الجسد ، ظلامُ الروح ..
الآلامُ التي ، لا تسمعُ ، ولا تبصر ، ولا تعي ، ولا تقول ، الآلام العائمة بانهزامٍ في بحيرةٍ راكدةٍ من الحزن ، أو المُعلقة في ضبابٍ شاسعٍ من الخوف ، والذهول ، ورهبة المجهول ، أو كما قلت أنت، الآلام التي "كأنما تمتدّ مزرعةٌ في خيالِ الوُجود ، تكسو عُراة ، وتعري عراة ، وتجري كآبتها في عُروق الحياة" .
يومئ برأسه مواسياً لثرثرتي .. يصمت قليلاً .. يحملق في الفراغ ، أحملق أنا الآخر . وفجأة ،وفي فراغ الصمت الجليل هذا ، يجول ضبابٌ كثيف حولنا ، ينقشع شيئاً فشيئاً عن صورٌ باهتة ، صرخات ، قهقهات ، عن همهمات ، جوقة تأتي من مكان بعيد ، جمع من المستعبَدين ، عراة يجثون على ركبهم، على الأرض، عيونهم تومض ببريق الكبرياء والانهزام معاً، رجال بيض يمطرونهم بالسياط، صوت ارتطام السياط بظهورهم العارية يأتي أقرب ما يكون للعاصفة منه إلى شيء آخر، عاصفة من الحقد ...

(انهض أيها العبد الأسود، وإلا التهمك سوطي هذا) ، يصرخ أحد الرجال البيض بوجهٍ مُتشنجٍ مُمتلئ بالكراهية ، ينهض أحدهم ببقايا قوة، يسير مترنحاً، يبحث عن شهقةٍ في الهواء، يجدها ، يصدر أنيناً مكتوماً، يدور حول نفسه نصف دورة، ويسقط سقوطاً بشعاً، فاغراً فاهاً مُتيبساً كبركة ماء جافةٍ ، شاخصاً ببصره كأنما يحدق في نقطة بعيدة في السماء ، مات .

ينقشع مشهد آخر ، أطفال عُراة ، يتمرغون في الطين والوحل ، يتقافزون مثل القرود ، يصيحون ، ويضحكون ، ثم رُويداً رويداً يتلاشون تاركين خلفهم صدى ضحكاتهم ، وأنينَ لمواجع منسية .

هبّت نسمة رطبة تسللت نافذة الغرفة حين غفلة من أمرها ، ثم صفعت وجهينا ، تنهّد كلانا .

– "الألم ، الألم يا فتى شعور رهيب ومخيف " ، قال كمن يخاطب الضباب اللاوجودي إلا في مخيلاتنا بصوتٍ رخيم مشحون بالحكمة والأسى، "أي إنسان يتألم ، يتألم عندما يُجرح كبرياؤه ، يتألم عندما تُجرح شخصيتُه ، عندما تُهان حقيقته ، يتألم عندما يرى الآخرين متألمين . هنالك ثمة شيء آخر ، وهو أنني عندما أمرّ مثلاً داخل مدينة ما ، ثم أرى جموع الشباب عاطلين ، خاملين ، يتناثرون كالذباب عبر حوائط الدكاكين ، تحت أسوار المدينة ، فوق مقاعد المقاهي ، أو تضطرهم الظروف القاسية إلى ولوج أعمال لم تكن لتسمح لهم بها قدراتهم .. عندئذ أشعر بالألم ، الألم العميق " .

يسعل ثلاث سعلات متتاليات ، يتمهن أربعاً، ويواصل بعد أن يتنهد عميقاً ..
– " أيضاً ثمة حالة أخرى تؤلمني ، وهي عندما أرى رجلاً ما ، أوتي القوة والثروة والنفوذ ، ثم ينسى يوماً ما أنه كان متألماً ، أنه كان متوجعاً ، أنه كان فقيراً وبلا سند ، ثم يتحول إلى ما يشبه الصنم ، دُمية صماء جوفاء .. عندئذ أشعر بالألم . ثمة قضايا كثيرة ومواقف كثيرة في الحياة تبعث على الألم ، بقدر ما هنالك مواقف كثيرة وأشكال كثيرة وظواهر كثيرة تبعث على الفرح ، كلاهما جناحان ، الألم والفرح .. نحن نعيش في عالم من التناقضات الكثيرة ، مجبولون على أن نعيش في ضنك وإعياء ونحن نبحث عن حقيقة الأشياء ، الأشياء حولنا ، حقيقتنا نحن كبشر، ومن ثم حقيقة الوجود عموماً " .
يصمت، ثم يقول :"فالغافل من ظن الأشياء هي الأشياء! " .

– أقول متماهياً مع مجريات الحديث الأخير عن الحقيقة يقول الفيلسوف الألماني ليسنغ : " لو كان بيد الرب اليُمنى الحقيقة كلها ، الكاملة الناجزة ، وبيسراه البحث الدءوب عنها ، المترافق مع السعي الدائم ، والخطأ ، واكتنان الحقيقة ، ثم قال لي اختر ، لجثوت على ركبتيّ عند يسراه ، وقلت له : إلهي ، ما بيسراك .. فأما الحقيقة ، تليق بجلالك "

– "نعم، فالتناقضات هي المزيج الذي تتركب منه الحياة ، ومن أجل ذلك ، أعتقد أننا نعيش ، وفي ذلك الأفق قُدّر علينا أن نتجاوز حياتنا إلى منتهاها" .
ثم لم نلبث قليلاً حتى انبثق صوتٌ جهُور ، عائمٌ في الفراغ حولنا ، يقول :
– " كانت بِشرته السوداء تقيم بينه وبين المدينة التي يحيا فيها حاجزاً كثيفاً ، يحرمه المشاركة والاندماج ، يؤجج في باطنه مشاعر مريرة صفراء ، ويشحذ حساسيته .
كان يقف على العتبة الأخيرة من الفئة البرجوازية الصغيرة ، يمتلئ وجدانه بصراعها المرير من أجل العيش ، وتمزقه قيمها المنهارة القلقة ، وترددها القاتل ، وتهدده هوات الشقاء التي لا تفتأ تتسع تحت أقدامها بين يوم وآخر .. في هذه المدينة التجارية الكبيرة التي لا تكف سفنها عن المجيء والذهاب ،والتي تقيم فيها الطبقة الأرستقراطية الأوربية البيضاء مجتمعاً يكاد أن يكون مقفلاً على أبناء البلاد ، والتي لا تعرف الوجه الأسود إلا خادماً ذليلاً " "١"

ثم لف الصوت عباءته ، استدار ، ثم اختفى تماماً ، وعاد الصمت !
ظل سيدي الفيتوري محدقاً في جسد الصوت المتلاشي لتوه في الفراغ ، بعينين شاخصتين ، تشوب بياضهما بعض الحمرة ، ظل هكذا برهة ، ثم استدار نحوي ،

حدقت في عينيه التعبتين ، وفي تقاسيم وجهه التي اصطبغت بالفاجعة والحزن المرير ، وكأن الصوت حفر عميقاً في ذاته ، وقال :

- " نعم ، كانت تنتابني أحاسيس بالغة بالدمامة والمهانة ، كنت أسير في طرقات الإسكندرية ، في شطئانها وسواحلها الجميلة التي لا تشبه ذاتها ، أنظر بعينيها وأتحسس منابع الجمال ، كنت ممتلئ الشباب ، ووجهتي كانت سماء رحيبة لا حدود لها" .

أقول :

- "لكن لم يمضِ حينٌ حتى كنت تتجول في تلك الطرقات ، وأنت مثقل بالهموم ، مثقلة روحك بنزاعاتها الأليمة ، حتى انعكس ذلك في رؤيتك للأشياء ، وفي شعرك فيما بعد ، كما هو بائن ..

الباب .. والسور .. ولون الحائط السقيم
ودرجات السلم المتسخ القديم ..
وأوجه المنازل الباهتة الرسوم ..
تطل منها أعينٌ بادية الهموم !
تجول الشوارع والساحات ، بروح بالغة الحساسية ، والناس
حولك يضجون ، وأنت وحدك ، تضجُّ بمأساتك ..
والساحةُ العجوزُ تستغرق في الشكاة
كأنما تنوءُ تحت ثِقل الحياة ..
وعربات الخدمِ المُطرَقة الجباه ..
وصرخات الباعة المُرهَقة الشِّفاه !

- ينشد أيضاً :

لا تخجل يا عصري الرائع
فعلى أرض الشارع
أطفالك ..
ما زات كف الطفل الضائع
تتمرغ في جسدِه
الأسمال الصفراء
تعرّت عن جسدِه
الطفل يحاول أن يخفي عورة بلدِه
ذاك الطفلُ الرائع
يتلفّت في خِزي مهمومْ ..
يتعثر ، ثم يقومْ !

كانت في البدء ثمة رؤى حالمة ، لكن دائماً هنالك من يجتزّ كل تلك الرؤى ، كل تلك الأشياء ، تماماً كمن يشعل عود ثقاب على كومة قش !

كانت ثمة عيون تضيق وتتسع ، ترمقني بشيء من التأمل والدهشة ، ساخرة من هيئتي ، ساخرة من بشرتي السوداء ، تقيم بيني وبينها حاجزاً كثيفاً من الفوارق ، كان ذلك يشعل في نفسي مرارة بالغة ، وحزن كبير .

فدائماً تحاصرني عيونهم ، ضحكاتهم ، تتابعني حيثما أسير ، إنهم يسخرون مني ، منظري يثير فيهم روح السخرية والاستهزاء .

لقد فضضت سر اللغز ..
سر المأساة التي ولدت معي ..

إنـنـي قـصـير وأسـود ودمـيـم !
فـقـيرٌ أجـل .. ودمـيـمٌ دمـيـمْ
بـلـونِ الـشـتـاءِ ، بـلـونِ الـغُـيـومْ
يـسـيرُ فـتـسـخـرُ مـنه الـوُجـوه
وتـسـخـرُ حـتـى وجـوه الـهُـمـومْ!

يصمتْ ، كأنما ينصُتُ لصوتِ حسِّه ، كأنما ينظر داخله ، كأنما ينبُشُ من ذاكرةٍ مُتخمةٍ بغبار المواجع ذكريات وذكريات .

ثم يرفع رأسه ، ويقول مواصلاً :

– " في الحقيقة لم تكن بِشرتي ولا شُعوري بالدمامة العقبة الحقيقية في سبيل الوصول للخلاص الذي أنشُده ، بل كانت العقباتُ تكمُنُ في باطني ، في عالمي الداخلي ، كانت ثمة مشاعر حاقدة سوداء تتقد ! لكني ، وللحقيقة ، أقول أني بدأت أتحسس لرحلتي إتجاهاً جديداً ، ولمشاعري وانفعالاتي وطناً آخر غير الغربة والضياع ، ومن لون بشرتي ، ومن إحساسي العميق بالمرارة والأحقاد وطناً بعيداً نائياً ، أسكنه ويسكنني ، ويغريني ، وأغني له ، وطناً لا كما الأوطان ، هو إفريقيا ، سمرائي .. سأغني لها ، وألونها بلون مشاعري وانفعالاتي ، سأخلع عليها مأساتي الخاصة ، وأبصر من خلالها لخلاصي المنشود ، اخلع عليها أزماتي الباطنة ، أخلع عليها صراعي النفسي المرير ، سأجعل منها بيت عزائي ، مقبرة أحزاني ، أجعل منها الحبيبة والحديقة والثورة ،وسنبكي ، ونغني معاً ..

أنا في حـبـك مـلـيـون ضـحـيـة
تـتـهـاوى تحت أقـدام جـلالـك
فـاجـعـلـيـنـي ، في نـضـالـك
لأكـنْ قـطـرة دمْ
شـهـقـة فـمْ

بسمة مجلودٍ هنالك
حيث تمشين مَهِيبهْ
في جِراحِكْ
في كفاحك
أنتِ يا رافعة النار إلى أعلى القممْ !

– يااا ، يا الله ! يا لجمالك المكسوِّ بالحزن الجليل !

قلتُ :

– ولدتَ فوق عتبات الصّمتِ والغَضَبْ .

قال :

– أنا تمرُّدُ التعبْ ، أنا تجسُّدُ الذُهول .

قلت :

– هل تخجلُ في أن تقول ؟

قال :

– لا أخجلُ أن أقول :

"يا زمني حتى الأسى شهوه"

قلت :

– هل ترهبُ في أن تقول ؟

قال :

– لا أرهبُ أن أقول :

يا زمني تآكلت حوافرُ الخُيول
والحوتُ في النهر يعرّي ظهرَه للشمس
والزرافُ يستريحُ في السُّهول
رائعٌ هذا الدجى الأخضر

رائعٌ صفاءُ الظُلمةِ الجميل
رائعةٌ رائحةُ الضبابِ والشَجرْ
رائحةُ الجبالِ والمَطرْ
رائحةُ السماءِ والنُجُومْ
رائحةُ الأرضِ إذا تنفّست ،
وهي تعانقُ الغُيُومْ
رائعةٌ عيناك يا حبيبتي
أجنحةٌ مُحلِّقاتٌ أبدا
يبرُقَ فيهنّ الشُعاعُ والنّدا
قوافلٌ مسافراتٌ أبدا
يبعُدن لا يترُكن من ورائهن
إلا ظِلالاً وصدى
رائعةٌ هُمُومُ عينيكِ الصّغيرتين
حين تسألان من يكون ؟
ذلك الشاعرُ .. من يكون ؟
ذلك المغني الهمجيّ
ذلك المُهرِجُ الحزين
ذلك الذي يصبُغُه الجّلالُ والذُهُولْ
كلما انحنى على جراحه
وراح يقرعُ الطُبُولْ

***

ها أنذا أقول :
لو ركضتُ عارياً فهذا قدري
ولو مشيتُ فوق جسرٍ من خُطاي
فهذا قدري
صوتي صوتُ زمني
وجهي وجه قدري
فلا عجبْ !

وُلدتُ فوق عتباتِ الصّمت والغضبْ
أنا تمرُّدُ التعبْ
أنا تجسُّدُ الذُهولْ
ها أنا ذا أقولْ ...

"١"محمود أمين عالم ، مقدمة ديوان أغاني افريقيا، دار مكتبة الحياة – بيروت ، ١٩٦٧م

. (الفيتُوري .. ذاكرةُ الصبيّ)

" ١ "

- "ولسبب ما هاجر والداك إلى مصر، إلى منطقة القباري في الإسكندرية، وفي شارع المِكس تحديداً ، نشأ الفيتوري ..

وهكذا ، ليكون القدر قد صافحك على الترحال منذ الصغر ! " ، أقول وكأني أسبر غوره ، وأضيف :

- " فإذا ما تحدثنا عن محمد الفيتوري ، الصبي ، المنكفئ ، المنغلق على ذاته ، الغائص في عتمته وآلامه النفسية ، عن ذاك الصبي الذي يلفه الغموض ، والتكبُّر والزهو بالنفس ، الصبي ابن الاثني عشر عاماً ، كيف نمت غابات الأحاسيس البالغة في ذاته ، غابات المشاعر الحاقدة المتوترة ، حتى تدفقت في عروقه، أشجارها الأسطورية ، فتمددت جذورها فيه ، وبصورة خرافية تشابكت حول ذاتها ، ثم التفَّت حوله ، وابتلعته ! "

إذن ، عن الفيتوري ، الصبي ، ابن الاثني عشر عاماً أتحدث ..

يفكر ملياً مُطرِقاً برأسه ، يرفعه ، يرمُقني بعينيه الواسعتين ، وهو ، كأنما ينبش من ذاكرة بعيدة تفاصيل ذلك الصبي ، الأسمر النحيل .

تكون الذكريات فينا مثل نهرٍ ساكن مستلقية بهدوء في مخيلاتنا ، ثم ما تلبث أن تهتاج إثر رائحة أو كلمة أو عبارة أو حدث مماثل ، تهتاج باعثة تلك الذكريات ، مثل من ألقى حجراً على البحيرة ، وهنا ، كنت أنا الحجر !

يحملق في تلك التموّجات الدائرية الصغيرة التي بدت تتسع في مخيلته .ثم وبذهنٍ شاردٍ كأنما سافر به عبر الزمن ، يقول :

– " ما يزال يلوح في مرآتي حتى الآن ، ذلك الصبي ، الأسمر القصير النحيل ، وهو يرفل في أعوامه الاثني عشر ، حاملاً في قلبه ، وفي عينيه ، إحساسه الخاص ، بتفرده وعذابه وغربته !

لقد كان كل شيء حوله ، يؤكد أن التفرد والعذاب والغربة ، أشد الصفات التصاقاً بواقعه البيئي ، والاجتماعي والنفسي .

كان وحيد أبويه ، إلا من شقيقة وحيدة .

إن عشرات ، بل مئات الألوف من الأطفال ، ممن هم في مثل عمره ، وظروفه ، يجدون أنفسهم فجأة ، كما وجد نفسه فجأة ، في مواجهة قدر الوحدة والانفراد ! لقد كان قصيراً ونحيلاً ، وذا بشرة أميل إلى السواد .

لا شك أنه كان على قدر من النقص ، أو الجنون ..أو ، ربما كان شعوره بالنقص ، هو الذي أوقفه حينذاك عند حافة الجنون .. أو ربما كان عكس ذلك ! "

أومئ ، وأهز رأسي في صمت ..

" كان يكره الأضواء والضوضاء والزحام .. " ، يردف ، " يحب زيارة القبور ، وصلاة الفجر ، ويكره مواسم الأعياد وحفلات الأعراس .. "

– " وهذا مبعث للغرابة !إذ كيف لصبي في مثل عمره ، لا يميل ، كما الأطفال الآخرون، للعبث !بل يجد نفسه بمعزل عن جوقة الأطفال ومظاهر البهجة ! " ، أقول متعجباً .

_ "نعم ، كنت كذلك فعلاً ، كانت أفعالي ملتبسة بالغرابة ؛ لذا كنت أبدو في نظر الآخرين متكبراً وشاذاً ، ومزهواً بنفسه إلى حد إثارة الغيظ والاستهزاء "

– " ثم أراد لك والداك بعد أن لحظا عزلتك ، ربما ، أن تكون واحداً من سدنة كتاب الله الكريم ؛ فدخلت على إثر ذلك الكُتّاب " .

– " صحيح ، أكاد أستحضر تلك الأيام ..

(سيِّدنا) تراه من بعيد وهو قادم ، رجل سمين الجثة ، حاد الملامح ، تراه يقوده صبيّان – فقد كان ضريراً – أحدهما يسير أمامه ممسكاً العصا من طرف ، وسيدنا خلفه يمسك طرفها الآخر ، بينما كانت كفه الضخمة ، تتوسد كتف الصبي الآخر ، وحين يقترب أكثر نلجم بالصمت ، ويتلاشى عبثنا وجوقتنا شيئاً فشيئاً ، في حين كانت عصا (العريف) المسكين تنهرنا بلا جدوى ..

ثم ها هو يجلس (على دكة من الخشب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة ، وقد وضعت على يمين الداخل من باب الكتاب ، بحيث يمر كل داخل بسيدنا . وكان سيدنا قد تعود متى دخل الكتاب أن يخلع عباءته ، أو بعبارة أدق (دِفِّينته) ويلفها لفاً يجعلها في شكل المخدة ، ويضعها على يمينه ، ثم يخلع نعله ويتربع على دكته ، ويبدأ في نداء الأسماء) " ١ "

وبدأت في حفظ القرآن ، وأذكر أني عانيت في حفظه كثيراً ، كم من امتحان رسبت فيه ، وعوقبت على نسيانه أشد العقاب ، من عصا شيخي الضرير السمين ، كانوا يعلقونني من قدميّ في (الفَلَكه) ، وهي قطعة من الجريد ، مشدود إلى طرفيها قطعة من حبل مرخاة عند الوسط بعض الشيء بحيث تتسع لقدميّ ، ثم يأخذ اثنان من أندادي ، يقفان عن اليمين واليسار في الضغط عليهما حتى تصير قدماي بينهما مسطحتين في وضع متوازٍ ، ومن ثم تبدأ عصا الفقيه حركتها البندولية ، صعوداً وهبوطاً فوق قدميّ ، دونما هوادة ، أو استجابة لصرخاتي

وأنّاتي الضعيفة المتقطّعة ، ولم يكن سيدنا يكف عن ممارسة هذه العملية إلا بعد أن تكون قد تعبت ذراعاه !

وأعود إلى البيت منكسر الخاطر ، متورم القدمين ، حاملاً تحت إبطيّ حذائي الذي سيظل لبضعة أيام قادمة ضيّقاً عليهما ، حتى تعودا إلى حالتهما الطبيعية .

كان يغيظني كثيراً أن والداي لم يكونا يبديان أقل قدر من التذمّر أو الاكتراث ، وهم يرياني في مثل حالتي اليائسة هذه ؛ لم لا وقد نذراني لأكون واحداً من سدنة كتاب الله كما قلت ! "

يصمت لبرهة ويقول :

"وهكذا ، ولأمرٍ ما ، تراءى لي أن أبحث عن ذاتي ، فوجدت نفسي مضطراً إلى أن أقرأ ، ثم أختار شيئاً مما أقرأ ، ثم أحاول أن أقلّد شيئاً مما أُعجبت به ، ثم تصوّرت أخيراً ، أنني قد وجدت نفسي فعلاً !

"١" : مشاهد من أجزاء الكُتّاب كما ذكرها طه حسين في مذكراته الأيام ١ . ص ٣٠ "

(الفيـتُوري .. ذاكرةُ الصبـيّ)



عيناه الواسعتان كما لو تمسحان من ركن قصي في ذاكرته ، تفاصيل ماض بعيد ..فيتراءى له ،الصبي الأسمر النحيل ، المتعطش للمعرفة ، وإشباع مدراكه حتى آخر ذرة ، يراه ، يكمل حفظ القرآن الكريم .. يقرأ سفر أرميا .. ونشيد الأناشيد .. يسافر إلى متون الأدب العربي .. مشدُوداً للشعر والحضارة الإسلامية ..

مُعرّجاً على الأدب الغربي ،مُطّلعاً على روائع الآداب الغربية المترجمة .

– " قلتَ بأنك وجدت نفسك ، إذن ،كيف بدأت تلك المرحلة ؟ أعني مرحلة القراءة والاطّلاع ، وأنت في صباك الأول ، المرحلة التي بدأت تتبلوّر عبرها شخصيتك ، ونواة الثقافة فيك تتضخّم شيئاً فشيئاً ، حتى انبثقت فيما بعد ، من ذلك الصبي ، ابن الاثني عشر عاماً ، شخصية الفيتوري ، الشاعر المثقف ؟ "

وكمن ينتشلُ نفسه من الذكريات إلى الذكريات ، يرفع رأسه بهدوء قائلاً بصوت هادئ تشوبه بحّة :

"كما قلت لك ، تراءى لي أن أبحث عن ذاتي ، فوجدت نفسي مضطراً إلى أن أقرأ "

يصمت قليلاً ، كأنما يتوغّل أكثر في مُخيلته المُحتشدة ، ويقول :

– " استطاع ذلك الصبي أن يعثر ذات يوم ، في مكتبة أبيه الشيخ الصوفي ، على كتاب ثمين .. عثر على سيرة عنترة بن شداد .. من يكون عنترة هذا ، فارس ؟ شاعر أم عاشق؟ ، أم قاطع طريق ؟ وراح يلتهم بكل ما في روحه من تشوق ظامئ إلى الحياة .. الجزء الأول ، ثم الجزء الثاني .. حتى أكمل بقية أجزاء تلك الأسطورة الشعبية ، عنترة ، ومنها عرف أن عنترة فارس لا يُشقّ له غبار ، وأنه عاشق لأجمل صبايا قبيلة عَبس ، حبيبته عبله ، وأنه أيضاً – وهذا مهم جداً – أنه عربي أسود البشرة .. أسود مثله ! ثم أعاد قراءة السيرة من البداية ، حتى أنه

ليذكر الآن ، كيف استطاع عنترة ، وهو الابن غير الشرعي لشداد ، أن يفرض ذاته ، وأن يؤكد وجوده ، وهو الشخص الضائع النسب ، ما بين الحرية والاسترقاق ، في مجتمع الجاهلية المُتعصّب ، الذي لا سيادة فيه إلا للأقوى، والأشرف ، والأغنى من الناس ، ولا حياة فيه للعبيد ، والمساكين والفقراء !

وهكذا ، وجدت الانفعالات الكثيرة ، الحبيسة ، والمجهولة ، والتي كانت تتماوج في رأسه الصغير الكبير ، في شعر وقوة وضخامة عنترة بن شداد ، كما يتخيلها ، متنفساً لها ، كأنها أشرعت نافذة لروحه كانت مُوصده !

ثم جاء الوقت الذي أفرغ فيه شخصية عنترة الأسطورية ؛ لكثرة ما عايشها ، بكل معطياتها النفسية ، ودلالاتها الإيحائية .. حيث لم تعد هذه الشخصية ذات قدرة على تلوين أحلامه ، وإشباع نوازعه ، فكان عليه أن يبحث عن عنترة آخر ، في كتاب جديد .. "

– " وراح ذاك الصبي يغوص من جديد في الدوّامة ، دوّامة المعرفة " ، أقول .

– " تماماً " ، يقول وهو يهز رأسه ، " فوقعت عيناه ، من بين جُموع الكتب ، على رحلة بني هلال من الشرق إلى الغرب ، فتعرّف على أبي زيد الهلالي سلامة ، والزناتي خليفة ، ودياب ، والأميرة الناعسة ، وكانت متعة لا حد لها عندما يشارك بخياله في المعارك التي خاضوها ، والمَشاق التي تعرضوا لها خلال رحلتهم التاريخية ، وكثيراً ما استغرقته رؤية فارس بني هلال الأسمر ، وهو يصول ويجول مُمتطياً صَهوة جواده ، رافعاً رُمحه ودرقته ، مُنشداً في الميدان :

يقول أبو زيد الهلالي سلامة

ولا كل من ركب الحصان خيال ! "

يقول هذا البيت ويصمت لبرهة، يحفر عميقاً في مخيلته ، ويعود..

- " ثم أخذ يقرأ لحمزة البهلوان ، والأميرة ذات الهمة ، وسيف بن ذي يزن ، وفيروز شاه ، وألف ليلة وليلة .

ولما نضب هذا المعين ، بدأ يتقرب من بعض الكتب الأخرى ، التي تصور أنها قد تتضمّن شيئاً يُبقي عليه عالمه الخيالي الخاص الذي شاده لنفسه .. فطالع القصص البوليسي ، قرأ لشيرلوك هولمز، وأرسين لوبين .. ثم بدا له أن يقرأ بالضرورة أعمالاً أدبية أخرى ، مترجمة عن لغاتها الأصلية ، مثل البعث ، والحرب والسلام لتولستوي ، وأنا كارنينا ، وفاوست ، وآلام فرتر لجوته ، وغادة الكاميليا ، وماجدولين . وهكذا تعددت مصادر إشباع احتياجاته الروحية ، والعاطفية ، فراح يلتهم بكل ما في روحه من تشوق ظامئ إلى الحياة ، ويقرأ .. "

- " أظن أن القراءة كانت عزاك الوحيد " ، أقول محاولاً توضيح شيء ، "أو بعبارة أدق كانت الملاذ ، وطوق النجاة ؛ حيث كان عليك أن تُشغل ذاك الصبي ، وتنتشله من إنكفاءته ، من انغلاقه حول ذاته ، وهو غائص في عتمته وآلامه النفسية ! فرأيت أن تبحث عن شيء ذي قيمة ما ، له القدرة على فِكاكه من تلك العزلة ، وتحطيم ذلك اليأس المُتمدّد فيه ..

ثم هكذا ،

وجدت نفسك تقرأ .. "

أصمتُ للحظة ، وأُردِف ..

– " هنا يأتي في خاطري مقولة للكاتبة الفرنسية (سيمون دي بوفوار) ، وهي تجترّ ذكرياتها ، ذكريات تلك الصبيّة الصغيرة ، فتقول :

– " في طفولتي ، وأثناء مراهقتي ، الكتب أنقذتني من اليأس والضياع ؛ وهذا ما رسّخ بداخلي أن الأدب هو أعلى القيم ! " .

– " هذه حقيقة " ، يقول مُقطباً بِفُجائية !

– " الكتب مثل طائرٍ عظيم ، يحملك بمنقارٍ ضخم ، ويحلق بك عالياً .. مصدراً زعيقاً .. يتشتت صداه في السماء ، وفي ذاتك ، فتنتبه .. تنتبه لوجودك ، تنتبه للأشياء الماثلة حولك .. فتخرج من قوقعتك .. من دوائرك المُعتمة المُغلقة ..وحينها ، ترى الأشياء كما لم تكن تراها من قبل ، عاريةً على حقيقتها ! " .

– "عجباً " ، قلت ، وأومأت برأسي في صمت ..

مقطباً جبينه ، كان يدور بعينيه محدقاً في المكان ، تسمرت عيناه في المكتبة ، التي كانت تعجّ بالكتب ، معظم ما أنتجه سيدي الطيب صالح ، وما أنتجه الروائي عبد العزيز بركه ساكن ، وروايات متفرقة لأدباء سودانيين آخرين ، عيسى الحلو ، أمير تاج السر وعبد الغني كرم الله ، ولروائيين شباب معاصرين أمثال عماد البليك ،منصور الصويم، حامد الناظر ، حمور زياده ، منجد باخوس ، مهند رجب الدابي ، سارة الجاك ، رانيا مأمون واستيلا قايتانو. وكتب نقدية عن الأدب السوداني لعبد المنعم عجب ، وعلي الملك ومحمد المهدي بشرى .. مجموعات لروائيين وأدباء عرب ، نجيب محفوظ ، طه حسين ، العقاد ، توفيق الحكيم ، إبراهيم الكوني ، أنيس منصور، مصطفى محمود ومحمد عابد الجابري وغيرهم ..

ومجموعات أخرى روائية صرفة لأدباء غربيين ، باولو كويلو ، غابرييل غارسيا ماركيز ، أجاثا غريستي ، دان براون ، ميلان كونديرا ، إيفواندريتش وغيرهم .. وكان هناك الكثير من الكتب القصصية والشعرية والنقد الأدبي والفلسفة والكتب الدينية ، وكتب التاريخ . وما جعله يبتسم ابتسامة خفيفة ، أنه كانت هناك رزمة من الكتب رُصّت فوق بعضها ، كانت أربعة كتب جميعها تخص شعر الفيتوري ..

ديوان محمد الفيتوري (المجلد الأول) .. ديوان محمد الفيتوري (المجلد الثاني)، وكانا مجلدين ضخمين ترقد بين دفتي غلافيهما مجموعة كبيرة من الدواوين والمسرحيات الشعرية والنثرية. كتاب ثالث كبير يضم دواوينه الثلاثة الأولى (أغاني إفريقيا ، عاشق من إفريقيا وأذكريني يا إفريقيا)من منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٧م . وكتاب رابع جاءت في صفحة غلافة البُنية ، صورته وخده يرقد على قبضة يده ، معتمراً قبعة قماشية ، بدا فيها وجهه حاف الملامح ، أو قل حيادي ، فقد كان يحدق في شيء ما ، ربما ظننتَ وأنت تحمل الكتاب، أنه يُحدّق فيك فحسب .

كانت طبعة مُعادة للطبعة الأولى الصادرة من دار الشروق بالقاهرة في العام ١٩٩٢م .كان اسمُ الكتاب (شرق الشمس .. غرب القمر) .

(الفيتُوري .. ذاكرةُ الصبيّ)

" ٣ "

– " ودخل ذلك الصبي الأزهر الشريف" ، أقول وكأني أحثه على الحكي ، كأني أجدف ، ليمضي مركبي عبر النهر ..

– " لا ، فقبل ذلك كان هناك حدث ، له من الأهمية ما له ، حيث ما زالت آثاره باقية في نفسي .. "

– " ما هو ؟ "

– " الحربْ ..

الـ.. حربُ .. الــ.. عالميةُ.. الثانية"

قالها هكذا بتؤدةٍ ، كلمة كلمة ، وهو يهز مع كل منها رأسه لأعلى وأسفل .

– " يا إلهي ، شيء مأساوي بحق ! " ، أقول بعَجب .

– " واشتعلت الحرب "

بدأ يسرد الأشياء ، وهو شارد بذهنه كليةً..

– " وكانت تموت اختناقاً في أيدي الحلفاء ، وأسماء هتلر والنازية ، وموسوليني والفاشية ، وستالين والبلشفيك ، وروزفلت وتشرشل ، أشبه برموز وألغاز تتحدى مداركه ، ومستوى فهمه ، بكل ما تنطوي عليه من معان ودلالات ! " .

– " وما الذي كانت تعنيه الحرب بالنسبة لصبي صغير مثله ؟ " ، أسأل .

– " ما الذي كان يمكن أن تعنيه بالنسبة لصبي في مرحلته ، أكثر من الخوف ، من ذلك الشيء المجهول .. من الموت ! "

يجيب بحزن بادٍ على وجهه ، وصوتٍ بدا أكثر شحوباً ..

- " حيث شهدته حواري الاسكندرية ، وأزقتها المتربة المتسخة ، وهو يتدحرج مع الهاربين ، إلى الخنادق والمخابئ ، لينزوي معهم بعيداً ، عن شظايا القنابل ، ونيران الطائرات المغيرة ، التي طالما روّعت غاراتها الليلية المتواصلة ، سكان المدينة الجميلة الهادئة ، النائمة في أحضان البحر الأبيض ، وكثيراً ما أحالت أحياءها ومبانيها ، إلى خرائب وأنقاض ! "

- " مُحتّم أنها تركت في نفسه أشياء مبهمة ، وفجرت فيه مشاعر غامضة غاضبة ، وحفرت عميقاً في نفسه " ، أقول مُستنتجاً .

- " مؤكد ذلك ! " ، قالها بصورة حاسمة ..

- " تركت في نفسه مشاعر غامضة ، مشحونة بالخوف والقلق ، والحزن والتوتر ، بإحساس ما ، بأن هناك شيئاً غريباً يحدث في هذا العالم ، الذي كان يراه عالم سلام " ! " ١ " .

- "وماذا بعد الحرب ؟ " ، أسأله .

- "بعدها عدت وأسرتي إلى الاسكندرية" .

- "عدت" ! " أقول مندهشاً ، "هذا يعني أنكم غادرتموها إلى مكان ما" !

يحملق برهة ، وكأنه يستحضر أين كان ، ثم يقول :

- " نعم ،غادرناها إلى الريف المصري ، وبالتحديد قرية (عرمش) في منطقة كفر الدوار " .

يقول كذلك ..

- " قرية عرمش لها في مخيلتي ذكريات لن تخبو .. وذاكرتي متخمة بها ، بكثير من الرؤى ، والمشاهد الريفية ، التي كانت بمثابة مهرجان مجاني للطبيعة ..

هناك ، حيث (اتصل هذا الطفل بالطبيعة الحقيقية – هذه الأسرة الآتية من المدينة ، تسكن بيتاً طينياً ، وتعيش عيشة الفلاح – فتنصبّ الطبيعة هذه بكل حوافزها وانعكاساتها فيه : الأرض، الفصول، الضباب، العمال والفلاحون . وكان لا بد لهذا الفتى الأسمر المتخلي عن الدراسة ، أن يلهو في الريف – بعيداً عن أزيز الطائرات، ودوي المدافع، وانفجار القنابل – فتعاطف مع الطبيعة بشكل عميق ،إنه كان في غالبية أيامه يخرج من البيت مبكراً ليصطاد السمك في الترعة القريبة من القرية ، ويطارد الفراش ، ويلاعب الكلاب، ويغازل الزهر والشجر ، ويراقب الفلاحين والعمال، في أعمالهم، وحلهم، وترحالهم) " ٢ "

- " وتلك المشاهد والرؤى ، وبهجة الطبيعة الريفية ، وإنسان الريف" ، أقول محاولاً استنتاج شيء ما ، " مؤكد أنها نامت في مخيلة ذاك الطفل اليافع ، وانطبعت فيها بكامل تجلّيها ، حتى اندلقت فيما بعد أنهاراً من الشعر " ..

- " تماماً " ، قالها وهو يومئ برأسه ، " أنت تذكرني بتلك الأيام ، وبتلك الرؤى والمشاهدات التي طفحت في أشعاري فيما بعد " ، وينشد :

وكانت هنالك عند الشمال

حقول متوجة بالغلال

وقوم من السود مستغرقون

يرصون أكداسها في التلال

وأصـواتهـم وزغـاريـدهـم

ترفرف صـاعـدة من بعـيـد

كـما يتـصـاعـد كـل صـبـاح

ضـباب الحـقــــول

ببـطء شـديــد .

وحين تـصـف طيـور الغـروب

عـلـى الأفق أجـنحـتها المذهـبات

وتمـضـي تـنقـر ثوب الـسـكـون

بـكـل مناقيرها المتـعـبات

تراهـم يـلـوحـون فـوق الـدروب

أو يـتـوارون خـلـف الـشـجـر

وهـم عـائـدون إلى دورهـم

بأيـد مـثـقـلـة بـالـزهــر ..

– " إذن ، وهكذا ، بعد الحرب عدتم إلى الإسكندرية مجدداً " ، أقول وأنا أجدف ، لأتوغل أكثر في النهر ..

– " نعم ، هكذا عدنا مرة أخرى ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وتابعت دراستي بالمعهد الابتدائي حتى عام ١٩٤٧م ، ثم التحقت بالمعهد الديني التابع للأزهر بالإسكندرية ، ثم المعهد الديني الثانوي بالقاهرة ، ثم الأزهر الشريف حتى العام ١٩٥٣م " .

- " وقد كان الأزهر مرحلة فاصلة في وعي الفيتوري ، أو ما أعتقده " ، أقول مُخمناً .

يصمت وكأنه يستحضر ما يقول ، ثم يبدأ يحدثني كأنه التقط إشارة ما :

- " ربما .. حيث مارست فيه أنماطاً جديدة ، أنماطاً من العلاقات والمعارف ، لم أكن قد ألفتها من قبل .

لكني في زُحام ألفية ابن مالك ، ومشاكل النحو والإعراب ، وقضايا الفقه والشريعة ، ومجادلات الفلاسفة والمتكلمين ، أحسست بالغربة والحزن يخيمان على روحي ، وتكادان تخنقان أنفاسي ..

فكتبت حينذاك شيئاً ، عن الحزن والغربة ، عرفت فيما بعد أنه ليس إلا مقدمة شعر
كان هذا الشيء الذي كتبته وقرأته على نفسي صورة طبق الأصل ، لما قرأته لشعراء آخرين ، يسكنون بطون الكتب ، ويطلون عليه من شرفات العصور .. أمثال طرفة بن العبد ، وامرؤ القيس ، وعمرو بن أم كلثوم ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة بن شداد ..

وذات حين ، قال لي أحد شيوخي ، عندما لمس شغفي بقراءة الشعر :

إن شعراء المُعلّقات ليس هم نهاية الشعر يا فتى ، هناك شعراء الصعاليك ، ابحث عنهم ، ولا تنس أن الشعر ازداد عذوبة وجمالاً ، بعد أن باركته حضارة الدولة الإسلامية . "

قلت :

- " ومن حديثه فتحت لذاتك نوافذ أخرى من ضروب الشعر" .

- " صحيح .. فأعجبني من هؤلاء ، الشريف الرضي ، وتلميذه النابغة مهيار ، المعرّي ، والمتنبّي ، وابن الرومي ، وأبو تمام ، بينما رفضت شعر البُحتري ، وأبو العتاهية ، وأبو نواس " ، ويقول كذلك ، " كان الأولون يمثلون لي طاقة الإبداع ، وأصالة التجربة الوجدانية عند الشاعر العربي .. بينما لم يكن يصنع الآخرون ، أكثر من أنهم يضعون في يديّ مفاتيح المهارة الفنية ، وعبقرية الذكاء ، وأصول الصياغة الشعرية " .

ويُردف :

- " خلال قبولي ورفضي ، كنت أمارس كتابة أشيائي الخاصة ، التي كنت أسميها شعراً ، وأحرص على تضمينها دفتي كتاب ، وكما خيّل إلي أنني شاعر ، خيل إلي أيضاً أنني عاشق . فكتبت أكداساً هائلة من الصفحات ، في شكوى زماني الغادر .. في بكاء حبي اليائس .. وفي رثاء شبابي الغض ، الذي اجتاحته الشيخوخة في الريعان" !

- " إذن تلك كانت فترة الأزهر الشريف ، بكل ما عايشتَها من تجارب ، وشهدتَه فيه من مواقف .. ثم ماذا بعده ؟ "

- " كما قلت ..ففي زحام ألفية ابن مالك ، ومجادلات الفلاسفة والمتكلمين ، أحسست بالغربة والحزن يؤرقان أيامي ولياليي .. فانتقلت إلى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، فرع الآداب والدراسات الإسلامية ، وقضيت فيها سنتين .. ثم تركتها هي الأخرى دون أن أنال شهادتها .. كنت منجذباً كلياً إلى عالم الكتابة والشعر والصحافة .. ربما لم أجدني أهضم القوالب الجافة المحشورة في بطون

الكتب الدراسية ، ولا روتينية المناهج وحبس القاعات الدراسية ، دائماً ما تجدني أبحث عن براحات لا تحدها حدود ولا تحكمها قوالب روتينية متيبسة ، كنت هائماً بالشعر ، باحثاً عن المفردة القوية ، المفردة التي تُشعلُني ، وتجعل من أحاسيسي جمرةً متّقدة دوماً " !

وكمن تذكر شيئاً للتو ، يقول ..

– " يجدر بي أن أشير إلى أنه في تلك الفترة، وأعني أثناء دراستي في دار العلوم ، وتحديداً في العام ١٩٥٥م ، نُشر لي ديواني الأول (أغاني افريقيا) ، أذكر أنه أقامت لي الكلية حفلاً تكريمياً كان بمثابة الشيء التشجيعي ،واعتزازاً بطالب استطاع أن يهُز الأوساط الأدبية والفكرية في مصر والعالم العربي ، بالقضية التي تناولها في هذا الديوان ، ودفاعه عنها . ألا وهي القضية الإفريقية .

فتركتُ الجامعة قبل أن أنهي دراستي فيها ، مُقبِلًا على الاشتِغال بحِرفة أصحاب الأقلام ، حِرفة الصّحافة ، هارباً من رتابة الدروس ، وقيود الجامعة وقوانينها ، ومن قيود المحاضرات المفروضة وأجوائها ، داخلاً لمعترك الحياة ، رجلاً مكافحاً بعزيمة الرجال ، وإرادة أصحاب الكلمة .

" ١ " : من مقدمة ديوان محمد الفيتوري، د. منيف موسى ، المجلد الثاني

" ٢ " : نفس المصدر

(زمنـي جلّاد لا يـرحَمْ) !

زمنـي .. يا أخـت هـوايا عَـجَـبْ

مَـوسِـمُ جـوعٍ .. وجـبالُ ذهـب !

حينما شارفت عقرب الساعة على الثالثة ظهراً ، كنت قد أحضرت كوبين من القهوة ببعض الزنجبيل، وحفنة من بلح القُنديل، قذف واحدة في فمه، أتبعها برشفتين من القهوة، وجال الصمت بيننا لبرهة.

قلت :

- " استوقفني مقال للدكتور عثمان جمال الدين ، الرجل المسرحي وأستاذ الدراما المعروف، في تقديمه لكتاب (الدراما والهوية في شعر محمد عبد الحي) ، يتحدث فيه عن تاريخ الشعر في السودان ، وتدرج مستوياته ، فتجده يقول عن الحقبة الثالثة وهم جيل رواد حركة التجديد ، من شباب الجيل الثاني من خريجي كلية غردون والجامعة الأمريكية والمعاهد المصرية –مثلك تماماً، خريج المعهد الديني بمصر– ثم يذكر منهم محمد أحمد محجوب ، والتجاني يوسف بشير ، وغيرهم . أصمتُ لبعض الوقت ..

- " ماذا لديك أيضاً، خبّرنا" ، وكان هذه المرة هو من يحثني على الكلام ..

- فقلت مُستأنفاً بعد استماعي لِما قال :

" حسناً ، أعود بك للدكتور عثمان جمال الدين، يقول بأن هذا الجيل انتخب البحث عن الذات صبابة ، ثم برزت المذاهب والمدارس الفكرية والأدبية التي ربطت السودان بأمشاج التيارات الثقافية المعاصرة في العالم والشرق خاصة ، ويقول بأن أعمق هذه الآثار وأكثرها ترديداً ، كان التيار الواقعي الاشتراكي ، ومضامينه التي تنادي بالكفاح، ومناصرة الشعوب، ومجابهة الرجعية ومناهضة الاستعمار ، وذلك في مزج بين نغمات الوجودية والرمزية والواقعية على حد قوله . "

ثم تبسمت في زهو وإعجاب بحق الذي أمامي عندما استأنفت قائلاً :

- " وقال بأن هذا التيار تقدمه (محمد الفيتوري)" !

فضحك من فُجائية عبارتي الأخيرة، وهو مُرتكزاً بقبضة يده على خده، متكئاً بظهره على الكرسي، قال كلمة ظلّت عائمة في تلك الضحكة :

- " يااااه " !

ولم يزِد عليها .

قلت مُسترسِلاً :

- " ربما المُناخ السائد، أو قل الظروف الاجتماعية ، أثرّت بصورة أو بأخرى على الحراك الثقافي في تلك الآونة ، فكانت بمثابة العامل الفعّال، أو قل المُحفِّز ، بعبارة أقرب ، قد أسهمت في تشكيل الوعي لدى الطبقة المثقفة والشعراء حينها ، فتحرك وعيهم لنيل حقوقهم واستقلاليتهم ، تحرك ضد الاستعمار ، وقهر المُستعمِر سالب الحريات وإرادة الشعوب . فانغرست فيهم بذرة الوعي الوطني والإنساني ، وحملوا على عاتقهم راية الكفاح بالأقلام والأرواح ! وأعتقد إلى حدٍ كبير، كان لذلك الأثر الفاعِل في خلق الحدث الشعري، بالنسبة إليك على وجه الخصوص "

هنا تبسّم ، صمتُ أرقُبه ؛ عسى في مخيلة الرجل ما يريد قوله ، حرّك رأسه يمنة ويسرة في بطء تأسفي، وحينما لحظ صمتي ، قال مُدّاركاً بنصف ابتسامة وعينين متحفزتين، بعد أن رشف رشفة أخيرة من كوب القهوة :

- " نعم ، حقاً ما تقول ، الظروف الاجتماعية تخلق الحدث الشعري، ذلك الحدث المتمثل في ولادة الشاعر وفي صيرورته الشعرية ، فذلك أمر كثير الحدوث ، ولكن الشيء الأقل حدوثاً هو أن يستطيع الشاعر تفجير الحدث الاجتماعي . بمعنى ،

أن يكون أداة حقيقية وفعّالة في إحداث التغيير . إلا أن ذلك كله وقف على أصالة الشاعر . أقصد عمق ارتباطه بالناس ، وقدرته الخارقة على أن يكون صوت مجتمعه ، أن يكون النبي والرسول ، القابلة وحفار القبور –كما يقول جوركي– في وقتٍ واحد " .

ويضيف :

– " ليس هناك شعر حقيقي دون موقف اجتماعي" !

– " فالشاعر إذن صوت مجتمعه" ، أقول .

– " ويحي .. وأنا شفتا شعبي ، أنا عيناه ! "، يقول بما يشبه الصياح ، ويردف :
– " إنها علاقة جدلية ذات مستويين أو وجهين يستحيل أن يكون أحدهما دون الآخر ، إن الشاعر ، أي شاعر ، هو ابن بيئته ومجتمعه الذي هو مزيج من التفاعلات السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية " .

يصمت لبرهة ، ثم يستدرك :

– " وإذا كان هناك في تاريخ آداب الإنسانية كلها شعراء اتخذوا مواقف بالغة الفردية ، فلا شك أن مواقفهم تلك ، إنما هي حصيلة انطوائهم على أنفسهم ، أو انتمائهم الضيّق للفئات ، أو القِوى الاجتماعية التي ينتمون إليها . أو ربما خضوعهم لمغريات ومصالح أنانية انحرفت بهم عن أداء رسالة الشعر . وفي واقع الشعر العربي المعاصر والقديم ، تتعدد النماذج ، وتتنوع الشخصيات ، وكل إبداعٍ يتوقف على طبيعة الشاعر ونوعية طموحاته ، يتوقف على أصالة موقفه ، وصدق انتمائه الاجتماعي والإنساني" !

(قلبي على وطني)

كنتِ عذابي .. أنت يا إفريقيا

وكنتي غربتي التي أعيشها

وشئتُ أن أعيشها !

ثمّة ضوء يتسرب من ثقب بالنافذة ، يمتد مستقيماً ، حاداً ورفيعاً ، يصطدم بالحائط ، يشكل نقطة صغيرة كان يحدق فيها حينما تحدثت إليه مباغتاً : سيدي ، اسمح لي في أن أتساءل ، لماذا يترك الشاعر وطنه ، ثم يبكيه بعيداً ؟ وفي مرات سيدي ، كثيراً ما يختار الشاعر منفاه بمحض إرادته ، مثلك ، حتى لُقبت بالدرويش المتجول !

إذن ، ما الوطن في الغربة، وهل ينسى ولو للحظة ؟

ودون أن يُشيح ببصره عن النقطة أنشد قائلاً :

وحُبّب أوطانُ الرجال إليهمُ

مآرب قضاها الشباب هنالكَ

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ

عُهود الصبا فيها فحنو لذلكَ ...

ثم أدار رأسه نحوي وحدّق في عينيّ كأنما يريد أن يؤكد لي شيئاً ما ، قائلاً :

– عندما تُضطهد في وطنك لا تكره هذا الوطن ، ولكن ، تكره المضطهِد ، عندما يُقسى عليك فتُضطر إلى الهروب من بيئته ومغادرته ، لكن ، وفي نفس الوقت يجذُبك الحنين دائماً إلى مرابع طفولتك ، ومعه لا يمكن أن تنسى وطنك ...

– ولكنك ابتعدت عن السودان ، وعن أرضك الكبيرة ، هل لهذه الأسباب سيدي ، أم هنالك أسباباً أخرى ؟ ثم أي أسباب هذه التي تقسو حتى تغادر الوطن ، ذلك الحنين العظيم !؟

قال بنبرة هادئة بعد أن صمت بُرهةً ثم نفخ من سيجارته نفختين :

– أنا .. أنا لن أقول بحثاً عن الشعر أو حتى عن القوت ، فلقد كنت أعمل ، وكنت أمارس حياتي بشكل طبيعي في جو تسُوده المحبة والإلفة ، كنت محفوفاً بكثير من التعاطف والرضا .. ولكن ولأسباب لا أستطيع تفسيرها لك الآن ، ولعلك تعلمها اضطررت لأن أبعُد كثيراً عن السودان ، أن أعيش حياةً أخرى لم تكن قط في فكري أو حتى في مخططاتي .. !

– لكن أليس بغريب أن تبتعد عن كل هذا التعاطف الذي تُحفّ به ، أن تبعد عن الأهل، والأرض، والنيل العظيم .. عن الوطن ، ذلك الحنين الكبير، وأن تصبح درويشاً متجولاً تجُوب البُلدان والأقطار بعيداً عن التراب المقدس ، الوطن !؟

كان شارداً بذهنه ، استعاد حُضوره ، نفخ من سيجارته نفخةً ثالثة وقال :

– هذا ليس بغريب عن الشعراء ؛ فتاريخِ الشعر العالمي، والعربي، والسوداني، مليء بأولئك المتغربين من حملة هذه الجمرة في أيديهم ، جمرة الشعر ، الرغبة في قول شيء ما ليس بإمكانهم أن يقولوه في مكان ما ، فيضطرون إلى مغادرة هذا المكان ..

– مثل أبو الطيب ؟

لبث غير قليلٍ ثم قال :

– أبو الطيب المتنبي مثلاً ، لا أدعي أني مثله ، لكني أقول أنا تجربته ؛ ألا ترى أن هذا الذي ولد في الكوفة ، وتربى في النجف ، وخرج من النجف إلى بغداد مهاجراً ، ثم الانتقال إلى القاهرة ، ثم الخروج منها هارباً ، بينما كان في رفاهية

ورخاء ، لكنه شعر أن أيامه لم تعد تتحمّل هذا الحيّز ، وأن ثمة عيون تضيّق عليه حركته ، وتضيق عليه الخِناق ، فآثر الحرية بالخروج ، وقُتل في الطريق في الحادثة الشهيرة التي نعرفها جميعاً ..

ولنقل كذلك أحمد شوقي ، أمير الشعراء ، أُبعِد من مصر ونُفي إلى إحدى الجزر في المحيط الهندي ، حيث قضى فترة من عمره يكتب ، ويحاول أن يسترجع ذكرياته عن هذا الوطن الذي نشأ فيه .. !

أيضاً من شعرائنا السودانيين شاعرنا الكبير محي الدين صابر ، هذا الشاعر الباذخ الذي اضطر إلى مغادرة أراضيه وبِقاعاً أحبها .. وأيضاً إدريس محمد جماع ، الذي وجدته ذات يوم في القاهرة ، كان لقائي به على ما أعتقد في أواخر الأربعينات ، التقيته بعينيه الزائغتين ، وقامته الطويلة المهتزة بعض الشيء ، وأحزانه اللا متناهية ، وعندما سألته لماذا تركت السودان ، رد قائلاً : لم أعد أتحمل الظروف التي مرت بي نتيجة أزمات وأحداث متلاحقة .. !

– إذن يا سيدي، الغربة ، يمكن أن نقول عنها أمر ونتاج طبيعي ، الخروج من دائرة ضيقة إلى دائرة أوسع ، البحث عن الحقيقة ، والبراحات الشاسعة ، وحرية التعبير .. !

– نعم ، وربما تفيد الشاعر ، وتفيد الفنان ، ربما تفيد الإنسان عموماً .. أحياناً تُفرض عليك ، وأحياناً تخرج أنت طائعاً باحثاً عن الرزق، أو باحثاً عن حلم ما ، وربما رغبة في التشرد ؛ فكثيرون من الفنانين والرحالة الأوربيين يتيهون في عالم كبير من حولهم .. كذلك الرحالة العرب ، مثل ابن بطوطة ، وغيرهم من الرحالة المشهورين ، أعتقد أن غرضهم كان أن يمتعوا ذواتهم .. أن يضيفوا إلى تجاربهم

، ويعمقوا معرفتهم بالآخرين .. وهكذا استطاعوا أن يتركوا بصماتهم، وأن يخلفوا ما خلفوه من آثار ...

ويبقى الوطن فيك ، كائناً حي تعايشه ، مهما كان ترحالك ، مهما كان بُعدك ..

لكني منذ مشت عواصف الحنين في دمي

ومنذ أزهرت براعم الكلام في فمي

ومنذ ما انطلقت ضائعاً مشرداً

أطوي ليالي غربتي ..

وأمتطي خيول سأمي

كنتِ عذابي .. أنت يا إفريقيا

وكنتي غربتي التي أعيشها

وشئتُ أن أعيشها !

ثم صمت ، تثاءب ، سعل سعلتين ، ثم بدأ يُداهِمُه النُعاس..

حينها كانت أصابع كفي تطوق جبيني ، أحدق في النقطة الضوئية المرتطمة بالحائط ، وثغري تتشكل فيه ابتسامة من فرط الدهشة ، بقيت هكذا بُرهة من الزمن وبقي هو صامتاً كأنما يناجي تحانيس النوم ، وبدا الزمن بيننا يمضي مهرولاً على عجل ...

(في حَضرةِ عظيمٍ آخرْ) ...

في حَضْرَةِ مَن أهْوَى

عَبَثتْ بِي الأشواقْ

– قُلتُ له دونَ مُقدمات :

مؤكّد أنها وصلتك ، تلك الشائِعةُ الخبِيثة التي قالت بموتِكْ !

– ردّ في هُدوءٍ وابتسامةٍ ساخرةٍ ساحرة ،

ردّ في هُدوءٍ وعينين بارقتين ،

ردّ بجملة حازمة حاسمة :

– أعلم يا فتى، أعلم جيداً،

أنّ الشُعراءَ ، لا يمُوتون !

فأَومأتُ برأسي في إيجابٍ وإعجابٍ بحقٍّ الذي قالْ ..

ثم قفزت به نحو وجهة أخرى :

– "كما هو معروف ، سيدي ، لقد حطّت رحالك على الكثير من محطات الدول العربية فصُلتَ وجُلتَ بينها .. أيّ إحساسٍ كان ينتابك ؟ فوراء كل بلد .. ثمة حكاية ورواية تُحكى ، في السودان ، وفي مصر ، في ليبيا ، وفي بيروت والمغرب ، وفي مدن زرتها ومدن ما زالت في أمنيات الخيال

ضحكَ ، ثم قال مُتبسّماً :

– عندما أكُونُ في مِصر أُصبح مِصرياً ، وفي ليبيا أكونُ ليبياً ، وهكذا .. لذلك لم تكن قصيدتي (منفىً) ، فأنا دائماً أشعُرُ بالانتماء إلى كلِّ أرضٍ عربيةٍ أعيشُ فيها ، وهكذا !

كنتُ أستمع لحديثِه بِعُمقٍ ، أُومِئُ برأسي في صمتٍ ، وأتبسّمُ مُغمِضاً عينيَّ كأني أسترجِعُ ما يقولُه ألف مرّة .

- أنا أيضاً يا سَيّدي أُحِبُ التِجوالَ والتِرحالْ ، كأنَّ حبيبةً ما ، تضرب خيامها في الـ(هُناكْ)، تنتظر مقدمي ، لكن متى، وإلى أيّ هُناك ؟ لا أدري ...

ثم ثرثرتُ كثيراً دون توقف .

- أُوَجِّه مِجْدافي من فَينةٍ لأُختِها نحو عوالمٍ أُخرى، عوالمِ هذا العظيمِ الشّاخِصِ أمامي، أقفِزُ بـه من هُنا إلى هُناك ، ومن هُناك إلى هُنا ، أجدُفُ تارةً أنا ، ويبادِلُني التجديفَ تارةً أُخرى . للحقيقة كنت ثرثاراً بطريقة لا تُحتمَل ، ثرثرةً لا يهدأُ لها بالْ ، ولا يَغمُضُ لها جِفنْ ، وكان صابراً عليّ ، مُتحمِّلاً لثرثرتي ، مُتكئاً في أريحيةٍ وهدوءٍ ، باسماً كنبيٍّ رحيمْ .

ما أخافه هو أن يغيبَ الرجلُ فجأةً .. فجأةً كما انبثقَ .. فهو مثل فُقاعةٍ نادرةٍ ، زاهيةٍ ، ومتخالجةِ الألوانْ .. تسبحُ في الفضاءِ بِحُرّيةٍ ورشاقةٍ وانبهارْ .. ثم ما تلبثُ أن تختفي .. أن تتلاشى عند أي لحظه ! فالقدرُ الجميلُ جعلَه ينبثقُ لي ، وعليَّ أن أتشبّثَ به أطولَ ما يمكنُ مِن زمنْ .. وأن أُرضِي ثرثرتي اللانهائيةِ في حقِّ الرجلْ .. في حضرةِ هذا العظيمْ .. وكما قال لي أُستاذي، الأديبُ والرّوائيُ، عبدُ الغني كرم الله، حينَ فاجأتنا الصُّدفةُ والتقينا، عبارتَه اللطيفةِ الجميلة : (كمْ لقدرِ اللهِ من ذكاءٍ ، وحِكاية) !

شَخَصَ في خيالي عظيمٌ آخرْ .. عظيمٌ من عظماءِ هذه البلادِ الكبيرةِ الرّحيبة .. فقلتُ له : ما أشبهَكَ بسِيّدِي الطيّب صَالح ! شبهاً في نواحٍ عُده ، فمثلاً ، جذوةُ الصوفيةِ عند شخْصَيكُما مُتأصلةٌ نبيلهْ .. تلك الصوفيةِ المعتدلةِ القويمةِ السمحة،

تظهرُ جليّةً .. فيتجلى ما تكتُبان ، فيطفِقُ يتألّقُ في مَلَكُوتِ اللهِ وعوالمِهِ بمدٍ لا نهائيّ

قالَ والحُزنُ بَادٍ على وجهِه :

- الطيّب صالح رجل أديب بالمقاييس العالمية ، طيّب اللهُ ثراه ، أخ عزيزْ ، وألتقيتُه ذات مرة وتحادثنا وتفاكرنا لساعات . رحِمه اللهُ رحمةً واسعة .

وبعينين شاردتين في مجموعةِ كُتُبي المرصُوصةِ على تلك الطّاولِةِ ، قالَ في هدوءٍ ونَبِرَةِ صوتٍ عميقه بعد أن لحظ احدى رواياته : يُعجبُني قولُه على لسانِ الطّاهرِ ودّ الرّواسْ ، في روايةِ مَرْيُودْ، وهو يقول : (الإنسانُ يا مِحيميدْ .. الحياةُ يا مِحيمِيدْ ما فيها غير حاجتين اثنين ، الصداقةُ والمحبة .. ما تقول لي لا حسبْ ولا نسبْ ، لا جاه ولا سلطانْ .. ابنُ آدم إذا كان تركْ الدُنيا وعندو ثِقة إنسانْ واحد ، يكون كسبان .. وأنا، المولى عزّ وجلْ أكرمني بالحِيلْ .. أنعَم علي بدل النعمة نعمتين .. أدّاني صداقةْ محجُوب ، وحُب فاطْمه بِت جَبَر الدَارْ ...) !

"روائيٌ يندر أن يجود الزمان بمثله ! " قال .

"في أحد أعماله" ، أقول ، "وتحديداً في (مريود) هذه ، يصف مشهداً دار بين الشيخ نصر الله ود حبيب وبلال ، فيقول : (ودخل ، وعليه غبار سفر بعيد ، حول رقبته مسبحة طويلة من اللالوب ، وفي يده ركوة جلد .. فانكب على قدمي الشيخ يقبلهما وهو يردد باكياً (لبيك . لبيك) ، أنهضه الشيخ وعانقه وقبله على خديه وبين عينيه ، وقال له ، وعيناه تدمعان (لماذا يا أخي تبعد عني هذا البعاد ؟ أما كفاك وكفاني ؟ ترفق بنفسك يا حبيبي فإنك قد تبوأت رتبة قل من وصل إليها من المحبين الخاشعين ، وإنني أركض ، فلا أكاد ألحق بغبارك) ! " .

"وهكذا" ، أُردف ، "تجد عوالمه ممتلئة بذلك العمق الصوفي .. فقد كان وسطياً غير مغالٍ ، يحب الناس ، ويعيش بعفوية وبساطة .. يقول عنه الأستاذ منصور خالد : (الطيب ، رجل عميق التدين ، على سنته ومنهاجه . قلما يحمل تدينه على كف قميصه ، أو يتظاهر به) .

وكما يقول صديقك الأستاذ طلحة جبريل : (سيبقى الطيب صالح أمة في كاتب ، وكاتباً في أمة) !

- الطيب صالح رجل متواضع ، رغم علمه الكثير ، ورغم قوله أنه تائه ، فهو دائماً ما يبحث عن جوهر الشيء ، والحقيقة ! " ، وكمن تذكر العبارة للتو يقول :

- فأذكر أنه قال عن نفسه : (يبدو لي أحياناً أن البشرية تائهة وأنا تائه معها ، لذلك لا أُطالب الناس بأن تفهمني كما أريد ، الكاتب نفسه لا يعرف ماذا يقول وماذا يكتب) .

أهز رأسي بإيماءة ثم أقول :

- " تعجبني أيضاً مقولة للأستاذ طلحة جبريل نفسه ، عندما قال ذات حين أنه يفتخر ويشعر بالاعتزاز حينما يقول(نحن من بلد الطيب صالح ،ومحمد الفيتوري)"

- "يا سلام ! " ، قالها ثم ضحك سيدي الفيتوري ضحكته الجميلة الوديعة تلك .

- "الطيب صالح" ، أقول وكأني لا أنوي الخروج من عوالم العبقري ،"ليس ذلك الحجر يُلقى في الماء ، لكنه البذرة تبذر في الحقل ! أو كما قال .

تحضُرني في هذا المُقام كذلك مقولة للروائي المصري الراحل جمال الغيطاني : (أنا أؤمن بأن الأدب الحقيقي لا بد أن يطابق الواقع ، وأن يكون محوره الإنسان .

وبالنسبة للواقع الذي أعرفه ، يبدا من دائرة الإنسان . " ويردف ، "بل يمكن القول بأن الإنسان بكل تجاربه ثم وطنه ثم الدائرة الإنسانية الأكبر . وفي تقديري أن كل هذه الدوائر متصلة غير منفصلة ، إذا عبر الكاتب عن واقعه المحلي بدقة يكون قد عبر عن الإنسانية كلها في كل زمان ومكان " .

وهذا تماماً ما ينطبق على أديبنا الطيب صالح ، الذي أسبر غور شخوص رواياته صانعاً منها دائرة الإنسان الملتف حول ذاته ، والذائب في الدائرة الإنسانية الأكبر ، فالزين في روايته الموسومة بـ (عُرس الزين) لم يكن سوى رسالته ودعوته الجوهرية من أجل المحبة والوئام والتسامح ، وتحطيم صنم المنفعة بمعول الإنسان البسيط المسامح ، حينما تتطايب النفوس، يشع الحب بين الناس كطيورِ محلقات .

ومصطفى سعيد الذي لم يكن سوى مسرحاً وبوابة لعرض أيدولوجيات وعلاقات مرتبكة ، تتمحور حول جدليّة الصراع ما بين الشمال والجنوب ، إثنياً ، وثقافياً ، ودينياً ، كان بصفة ما دائرة الإنسان التي تتمحور حول جدلية الصراع ما بين الشرق والغرب . في قصته (نخلة على جدول) نجد حس الانتماء والتصاق الانسان بمنبته ، فالنخلة مهما تعالت وشمخت، ترتكز على جذور ضاربة بامتداداتها في أعماق الأرض .

وعبر (ود حامد) نجده قد عبّر عن واقعه المحلي بمنتهى العبقرية ، فكانت (ود حامد) وهي بمثابة رمزية شمال السودان الذي نشأ فيه بكل فلكلوره عبر جميع رواياته ، وهو الذي عاش متنقلاً بين شتى الدول، لم تخرج رواياته من عَباءة

المحلية ، ليس من عدم قدرة ، بلا شك ، بل ذلك فعلاً ما يؤكد فيه حس الانتماء ، وغريزية العودة الى منابت الجذور.

كان عبر شخوصه يعبر عن الدائرة الإنسانية الأكبر بكامل صراعاتها وآمالها . وهذا بمثابة إثبات أن الكاتب إذا عبر عن واقعه المحلي بدقة يكون قد عبر عن الإنسانية كلها في كل زمان ومكان ، فلم تكن (موسم الهجرة إلى الشمال) سوى المرآة التي عكست عظمة هذا الأديب ، أديبنا الطيب صالح ، فلا غرابة إذا ما اختيرت مع ثلة من أعظم ما كتبه الأدباء على مر التاريخ ، جنباً إلى جنب مع (فاوست) لجوهان جوته ، (القلعة والمحاكمة) لفرانز كافكا ، (مائة عام من العزلة) لماركيز ، (الترقبات العظيمة) لتشارلز ديكنز ، (الأعمال المختارة) لأنطون تشيخوف ، (آنا كارنينا) لِـ ليو تولستوي و (الإخوة كرامازوف) لدستويفِسكي ، نجدها ، (مَوسِمُ الهِجرةِ إلى الشَمال) للطيّب صالِح !

– "عظيم! " ، يقول وهو يهز برأسه زاماً شفتيه ، "عظيم هذا الرجل ، رحمة الله عليه" .

ثم صمت، كأن ما يجول برأسه أكثر مما قال .

بعدها أنشدَ أبياتاً من قصيدتِه (معزُوفةُ لدِرويشٍ مُتَجوِّلْ) – هي ذاتُها الأبياتُ التي كتبها سِيْدِي الطيّب صالح في بدايةِ روايتِه (بندر شاه– ضوءْ البيت) – أنشدَها في قداسةٍ ورهبةٍ ، وأشجانِ مُحب :

في حَضْرَةِ مَن أهْوَى

عَبَثتْ بِي الأشـواق

حـدّقـتُ بِلا وجْـهٍ

ورقـصـتُ بِـلا سـَاقْ

وزَحـمْـتُ بِرايَاتي

وطُـبُـولِـي الآفـاقْ

عِـشـقِـي يُـفـنِي عِـشـقـيْ

وفَـنَـائِـيْ اسْـتِـغْـرَاقْ

مـلُـوكُـكَ لـكِـنّـيْ

سُـلـطَــان الـعُـشّـاقْ !

حينها، بدا وكأنّه يُرسِلُ إنشادَه ، وأشجانَه ، وأشواقَه تلك إلى روحِ سِيْدِي ورفيقِه الطيّب صَالِح ، تلكَ الرُّوحُ الطّاهِرةُ الجّمِيلةُ التي ارتحلت إلى رحاب ربها ، تاركة خلفها إرثاً أدبياً شامخاً كالنخل في الشمال !

ثم أخذتُ بخيالي أَهِيمُ في رِحَابِهِما ..

أحدُهُما أُسطورةٌ أدبيّةٌ، قَصَصِيّةٌ ورِوائيّة .

والآخرُ أُسطورةٌ شِعريةٌ، ثوريّة وإِفرِيقِيّة .

رجُلانِ عَظِيمَانِ مِن السُّودان ..

رجُلانِ بِحَجْمِ النِّيلْ ..

بَلْ قُلْ، كأنبياء وُجَهَاءْ !

(ليسَ في الياسمينةِ غيرُ البُكَاءْ) !!

حدّق في دفترٍ ماكثٍ على طاولةٍ جواري، انحنى للأمام ، التقطه، ثم راح يقلبُ أوراقه، ورقة ورقة . كان دفتراً عليه بعض أشعاري البائسة ، مخطوطة بخط كان على عَجلٍ من أمره .. ابتسم وهو يقرأ ، ثم قال : جميل !

ضحكتُ في صمتٍ وأظهرتُ بعضَ التبسُّمْ ؛ ماذا يقول !؟ فأشعاري البائسة تلك بدت مثل رسمِ الأطفال، حين يقعُ في أعينِ فنانٍ كبير، فيبتسم ، كأن خطاً عشوائياً أو لوناً مشاتراً سُكِبَ بالخطأِ في مُنتصفِ الرّسمةِ تماماً ، فعنى له بطريقة أو بأخرى شيئاً عظيماً حرّك في نفسه إحساساً خفيّْ، غيرَ مُدركْ ، حالُ الكِبارِ ، دائماً ما يرَون العالمَ والأشياءَ بأعينٍ لا كما يراها عامة الناس !

قال :

- "إذاً أنت تُحِبْ" !

قلت :

- "أنا لا أُحِبُّ أُنثى ، في الوقت الراهن على أقل تقدير" !

ضحكْ ، تأملتُ ضحكته ، كانت مثلَ النوارسِ المُرتحِلة حين تحُطُّ على شواطئ البحار ، فتبعثُ بزعيقِها وتقافزِها ورفرفةِ أجنحتِها البهجةَ على رِمالِ الشواطئ المستكينة الحزينة .

- "وأين أنتَ من الحُبّ ؟ " قلت له بفُجائية !

صمت بُرهةً من الزمنِ خُيِّلت إليّ دَهراً ..

ثم إتكأ على الكُرسيّ بعد أن كان مُعتدلاً ، واتّخذ تلك الوضعيةُ حيث قَبضَةُ يدِه ترتكزُ على خدِّه ، وهو يرسل حديثاً بدا لي وكأنه يخاطبُ به نفسَه قبل كل شيء ، وهو يقول :

– " ليس هناك إنسانٌ لم يشعر بلحظةِ حُبٍّ .. لم ينبُض قلبُه إزاءَ موقفْ ، إزاء رؤيةْ ، أو حتى إزاء زهرة ! إذاً أنا أحببتْ .. وأحببتُ دائماً .. وأجدُ في هذه العاطفةِ زاداً وزيتاً يُشعِلُ في داخلي الفِكر، والرُؤية، والإحساسَ، والصُّورة .. ويجَمِّلُ في عينيّ الحياة" .

– "ولكن أين هذه العاطِفةُ الجَميلةْ ، أو بمعنى أدق ، الغزل ، لا أراه في أشعارِكَ، رَغم أنك تستطيع !

– " لا .. أنا لم أستطِع قطْ" !

قالها بصورةٍ حاسِمةٍ وقاطعة .

– "وهذه حقيقة" ، يواصل ، " بالرّغم من تنوُّعِ علاقاتي وصداقاتي ومعارِفي ومو‌داتي مع الآخرين والأُخريات ، من مُختلفِ المناطقِ العربية ، مع مُختلفِ العناصِرِ والأشكالْ ، لم أستطِع أن أكتُبَ قصيدةً غزليّةً كما يكتُبُ الآخرون من الشعراءِ البارزين في هذا العصر، أو في غير هذا العصر " .

– "مثل صديقك قبّاني ؟ " أسأله .

وكنت هكذا دوماً في ثرثرتي معه، أرمي بالشيء ، فيلتقِطُه ، ويمضي بي ..

قال :

- " لم أستطِع أن أقولَ مثلَ ما يكتُبُ شاعرُ الحُبِّ والجّمال، نِزار قبّاني، فهذا الشاعرُ بالذّات في هذا العصرِ كانت له أصابِعُه البارِزة، وبَصماتُه المؤثرةِ في حياةِ الشُعراءِ العرب، وفي حياة القرّاءِ العرب، بما كتبه من قصائدٍ تتحدثُ وتتجمّلُ بالمرأةِ وتُغنِي لها .

فأنا لم أستطِع أن أكونَ نِزار قبّاني، وأعتقد أني لا أستطيع"!

وكأنما كان يقرأ تفاصيل وجهي المُبهمة ونظراتي الحائرة ، مضى يحكي :

- " لأني لا أستطيعُ أن أُجرّد المرأةَ .. أن أُجرّد الحُبَّ مما حوله .. يستطيع نِزار أن يجعلَ من الحُبِّ جوهرةً ، يُعلِّقُها على صَدْرِه، أو على صدرِ من يُحبْ ، ويستطيعُ أن يأخذ هذه المحبوبةَ أو هذه المعشوقةَ أو هذه المرأةَ فيُبروِزُها ، ويضعُ لها إطاراً ، ويُغنِي لها ، أو يعزِلُها من بيئتِها ، ويرتقِي بها إلى السّماءْ ، يتحدثُ عن تفاصيلها الدّقيقة ، عن شفتيها ، عن عينيها ، عن شعرها مثلاً ، وعن كل الجمال فيها !

- "وأنت" ؟

نظر إلي كأنما يتفحّصُني بعينيه ، وقال :

- " لكني يا فتى ، وهذا عجز فيّ كشاعرْ ، إن حقّ لي الاعتراف ، لا أستطيعُ إلا أن أكونَ شاعراً ينظرُ إلى المرأةِ كلحمٍ ودمْ ، وأنها إنسانٌ غائِصٌ في الحياةْ ؛ لذلك، المرأةُ عندي جُزءٌ من المجتمعْ ، جُزءٌ من حركتِه المُتطوّرة ، جُزءٌ من تخلُّفي ، جُزءٌ من نَكبتي !فهُويّتُها تختلطُ بالأشياءِ المريرةِ التي نُعانيها نحنُ ؛ ولذلك ، أعتقد أني لم ولن أستطع ، أن أكتُبَ عنها كما يكتب عنه نزار !

وأخذ ينشد :

ابتسمي
حتى تمر الخيل
والبيارق المذهبة
فالخيل ليست خيلنا نحن ..
ولا الصهيل ..
واختبئي في مطر الضفائر
المضطربة
وكبرياء حقدك الجميل
فالبطل القتيل
ليس هو القتيل
وأنتي يا حبيبتي المعذبة
متعبة
أعرفي كم أنت جد متعبة
الدم والطاعون في الثديين
والمخلب ، والمنقار حول الرقبة
والليل ، والأغربة العرجاء
والوحشة ، والرحيل !

وينشد :

كنت أعرفْ ..
وأنا أصرخ في القافلة
النائحة
المنكفئة
أنني أحمل أجيالاً من الأفراح
في حزني
وأني إن تساقطتُ ..
فلن أسقط إلا في ذراعيكْ ..
وفي مجدُك أمتدُّ
وأفنى
كنت أعرفْ ..

وأنا أحتضن الراية
من منفىً لمنفى
أنهم إن قتلوني
مرة واحدة ..
أُولَدُ في عينيكِ ألفا !

– يااااه !

إذاً ليسَ في الياسَمِينةِ غيرُ البُكَاءْ !؟ " ، أقولُ بعَجَبْ ..

وكأنما كان مدفوناً في رمالٍ من الحزن ، رفع رأسَه في بطءٍ ثقيل ، مُحدقاً بعينين واسعتين في فضاءِ الغرفةِ ، لكأنما طيفُ امرأةٍ ما ، يرقُصُ الرّقصات الحزينةِ هناك على الحائط .. ثم أنشد ، وكأننا في مسرحِ اللامعقول ، في وجه ذلك الطيف مُرسِلاً ساعديه للفضاء :

مِثلَ أرملةِ العُرسِ
أسدلتِ النحلةُ الذهبيّةُ أهدابَها
وهَوَت مطراً ناعِماً ،
في بُكَاءِ الغُصُونْ ..
ليسَ في الياسَمينةِ غيرُ البُكَاءْ
وفي بَهْوِ سيّدةِ القلبِ نافُورةٌ ،
ومُغَنٍ حزِينْ !

....

وتضِجٌ في دمِكِ الشّهيّ
مجاعةُ الشّوقِ الدّفينْ
فأراكِ في جُدْرانِ غرفتِك الحزينةِ

تركُضِينْ ..

كالنّورِ في قَيْدِ الدِّجى ،

كالدّمعِ في عَيْنِ السّجِينْ

(عذابُ الإبداع .. حينما تُولدُ القصيدة)

(أنا صوتْ ، مجردُ صوت ، ربما أمكن لهذا الصوتِ أن يبقى بعض الوقت ، وربما ذهبَ مع الريحِ كما يقولون) ..

صمتنا هنيهة من الوقت ، وربما ضاق ذرعاً من رتل الهواء المتيبِّس القابعِ في فراغ الغرفة ، نهض من مقعده مرة أخرى ، وبخُطوات متثاقلة، يقصد النافذة التي يطل وجهها مباشرة على الشارع الفسيح الممتد ، وما أن فتحها على مِصراعيها إلا ورتل من الريح الخفيفة الرشيقة تتلقف وجهه ، مثل شخص يشتاق لآخر والتقيا ، ورغم أن الزمن كان وقت ظهيرة ، إلا أن الرياح كانت مُحملة بعبق الشتاء . تمددت نصفُ ابتسامةٍ على وجهه ، وتنهّد عميقاً ، وكأنما يخاطبُ النافذةَ والريحَ قال هامساً وهو يُحدّقُ في الحياة الدائبة بالخارج :

أنا صَوتْ ،

مُجردُ صَوت ،

ربما أمكن لهذا الصوتِ أن يبقى بعض الوقتْ ،

وربما ذهبَ مع الريح كما يقولون !

يصمُت ، يرقُب العابرين العُجالى والبيوت بعينين مرهقتين بدتا حافيتين من الملامح وينشد :

لم أكن غيرَ صوتٍ

حين فاجأني ..

وتداخلتُ في الموتْ

وعرفتُ اكتمالَ السُّكوتْ

ولذا لن أمُوتْ

سأصيرُ حديقةٌ نارٍ

تُحلّقُ أطيارُها في زوايا البُيوتْ ...

وحينما عاد بنفس الخطى المتثاقلة ، البطيئة ، الحذرة مثل شخصٍ يسلُكُ طريقه عبر زُحامٍ ، قلت له :

- سيدي ، إذا سألتُك ، متى يكتبُ الفيتُوري ؟ بمعنىً آخر ، متى يأتيه الإلهام ، وهل ثمة زمن بعينه لتدفقه الشعري ؟
يُحدق في عينيّ كأنما يبحث فيهما عن إجابة ، يُقطّبُ حاجبيه ، ثم يهُزُّ رأسه ويُعمِلُ يديه في الحديث وهو يقول :

- كلا ، ليس هناك ثمة وقت محدد ، وقت بعينه يمكنني أن أقول عليه بأن هذا هو وقتُ الشعر ، وليس هناك أيضاً مكاناً معين أقول عليه أن هذا المكان لائقٌ بكتابة الشعر .. حتى أنت ، تتغير طِبقاً لتغيُّرات الرياح ، الطبيعة التي تحتضنك ، البلد الذي يُغريك أو يُقصيك ، والناس الذين يُدنونك أو يُبعدونك !

إذن ليس هناك ثمة زمان محدد أو مكان محدد للكتابة . أنا أكتب في الطائرة ، وأكتب في القطار ، أكتب وأنا أقود السيارة ، وأكتب وأنا في الطريق مذهولاً وبعيداً عن الناس .

الشعر حالة تتملّكُ الشاعر فجأة ، فيجد نفسه منقسماً إلى شخصيتين ، شخصيةٌ اجتماعية ، تتكلم مع الناس وتمارس طُقوسها العادية ، وشخصيّة أخرى غائصةٌ في ذاته ، ربما يشعر أحياناً أنه يحملها على كتفيه ، أو يجرها وراءه حتى ! هكذا يبدو الشاعر ، أو أبدو أنا بصفةٍ خاصة .

- وعن طقس الكتابة ؟ وحين تكتب، هل تحُسّ بامتلاء القصيدة بك ، هل تحس بأنها تحتويك تماماً أو أنها تُشبِعُ أحاسيسك ومشاعرك المتحفِّزة وتجيب على تساؤلاتك القلقة ولو بتساؤلات مماثلة ؟ ثم إلى أي مدى يمكن للشاعر أن يراجع قصيدته أكثر من مرة ؟ ومن هو الشاعر الذي يمكن أن نُطلق عليه سِمة (الشاعر الحقيقي) ؟

رميتُ إليه تساؤلاتي هذه دفعةً واحدة ،كصيّاد يُلقي شباكه على النهر، منتظراً حصيلته من السمك ..

قال وهو يُحرق سِيجارةً ، ودُخانُها الرماديّ يتماوجُ في الفراغ ، ثم ما يلبث أن تسرب عبر النافذة المُشرَعة :

- أنا أؤمن بأن ليس شيءٌ في الحياة كامل ، عدا الله سبحانه وتعالى ، وليس شيءٌ فيما يقولُ الناسُ كامل ما عدا النصوص المُقدّسة ، أما نحن عندما نريد أن نكتب شعراً أو نثراً أو نقداً ، يجب أن نراجع ما كتبناه ، ولذلك أنا أراجع قصيدتي ، وأنا الذي كتبتُ قُرابة عشرين مجموعة شعرية، وأكثر من خمس مسرحيات، وعشرات المقالات، ومئات التعليقات وغيرها ، ما زلت حتى هذه اللحظة أكتب قصيدتي أكثر من عشرين مرة ، أكتبها الآن ثم أعود في صبيحة الغد وأقرأها ، فأجد أنها لم تقل شيئاً مما هو في ذاتي ، فأمزقها ، ثم أبدأ من جديد في كتابة نفس القصيدة ! وهكذا ، حتى أصل إلى ما يمكن أن يترسّب في خيالي أنه قريب مما في ذاتي !

إنني أضع فكرة البذرة بكل وعي ، ثم أنتظر بعض الوقت حتى تزدهر فيَّ كما هي في باطن الأرض ، لتبدأ تتشقق في داخلي وتشقني في نفس الوقت !

يتنهّد في أريحية ، يسحب آخر نفسٍ من السيجارة قبل أن تحترق تماماً، ويقول :

– أريدُ أن أكون صادقاً مع نفسي أولاً ، وأن يكون ما أكتبه هو ما أحُسُّه . غير أنني أطمحُ في أن أتعرف على الوجه الآخر ، وأعني ، الوجه الآخر لشقائي !
القصيدةُ عندي عمليةُ عذاب ، وأنني في هذه العملية لا آتي بجديد . هنالك شاعر فرنسي مشهور ، هو شاعر فاشل ، لكنه ناقد من النقاد التاريخيين في الشعر الفرنسي، اسمه (بُوالُو) ، عنده ما ترجمته وقد قرأته في صباي الأول :
(أيها الشُعراء الناشئون ، راجعوا أعمالكم في ضُوء الصِّنعة ، إحذفوا وأضيفوا ، بغير ذلك لن يوضع كل شيء في مكانه ، ليس هناك شيء تافه ، أو غير نافع ، كل شيء في موضعه بديع) .
هذه هي القاعدة الأساسية والحقيقية ..

أما إذا أردت أن تكون شاعراً حقيقياً ، فاجعل لك موقفاً من الحياة ، ويجب أن تكون لديك الأدوات التي تعبر بها ، ويجب كذلك أن تكون لديك الجُرأة التي تصرُخُ بها في وجوه الآخرين إذا ما تحتم عليك الصُّراخ .

أذكرُ حادثةً لعلني يمكن أن أقولَ عنها طريفةً نوعاً ما ، حدثت عندما قدمني أحد أصدقائي الشعراء إلى صديق له ، وكان ذلك عقب صُدور ديواني الأول (أغاني إفريقيا) ، حينها أدهشني ذلك الرجل بثورته المُفاجئة في وجهي ! قال كلاماً كثيراً ، ما تزال تطِنُّ في أذني منه هذه الجملة :

– (ما هذا الشعر الذي تكتبُه يا أخي ! لقد فضحتنا ، إنني أكرهُكْ !) .

– "نعم" ، فلقد أردت بالفعل أن أفضحَ واقعُنا اللا إنسانيُّ الأسود ، الذي تضيع فيه القيم ، وتُسلب فيه الحريات ، وتقيد الإرادات .. ولن أسمح لنفسي أبداً بالمساهمة في تزييف هذا الواقع القبيح" !

– "هذا تماماً لهو (جوهر الواقعية) " ، أقول ، "إذ يقول عنها الأستاذ محمد مفيد الشوباشي في كتابه (الفلسفة السياسية) : الواقعية دعوة إلى الكفاح في سبيل إزهاق الباطل ، وتحطيم الأوضاع الجائرة ، وتغيير الواقع أو العمل على سرعة تغييره) . كذلك يقول أحدهم ، أظنه باترسيلز (الواقعية في الأدب والفن محاولة لوصف الحياة بطريقة أمينة وموضوعية) .

– "نعم ، تماماً" ، يقول وهو يومئ برأسه ..

ونظل صامتين لبرهة .

ما ألبث وأرمي بحجري في بركة الصمت هذه، حتى تتوتر صفحته بدوائر ودوائر، تتسع وتتمدد حسب ما يدور في البال المتحفز ، وبما يستكين في مخيلته الرحيبة، وأقول :

– ربما أمكنني القول أن عملية الخلق الشاعرية تتم إثر حالة ديناميكيةٍ ، حالة دفقٍ خفية بالغة التعقيد ، تلك الحالة التي يتحسس فيها الشاعر الخيوط الخفيفة الشفافة النابعة من روحه . أعتقد أن الفيتوري يعايش تجربته بكامل أساها ، بكامل جمالها ورونقها ، قبل أن يرسمها بريشة شاعرٍ، لوحةً شِعريةً سِيرياليةً بديعة !

صف لي كيف تتحسس تلك الخيوط ، كيف تتولد في روحك القصيدة ، أو، كيف تتولّد أنت وتتجدّد في هذا الدفق الشاعري !

رفع رأسه وحدق في المكان لبرهة ، امتدت عيناه نحو الحائط ، أطال النظر للساعة الحائطية ، حتى حسبت أنه على مشارف موعد ما، وقد تأخر عنه الآخر .

للصمت الموغل، بدت لي تَكّات الساعة الرتيبة، كدقات قلب خفيفة ، إنـها الآن تشير إلى الخامسة والنصف عصراً .

مطّ شفتيه ، وهو ينظر للساعة ، هزّ رأسه لأعلى وأسفل بإيقاعٍ سريع ، ما يعني ، وهو ما غاب عني ، أن قد تبقت ساعة وأُصبح هنا وحدي في المكان ! ما يعني التلاشي ..

عدل من نظره نحوي محدقاً بلا اكتراث ، حتى خُيِّل إلي في تلك اللحظة أنني ربما كنتُ محضَ صوت ! وقال مُقطباً :

– كيف يمكنني أن أحلل، بل أن أصف حالة تركيبية بالغة التعقيد والتداخل، دائمة التجدد والتغيير؛ لأنها نادراً ما تكرر نفسها ، ونادراً ما تتكرر حتى بالنسبة للفنان نفسه !
إنني لا أحسب أن شاعراً أو فناناً ما، لديه القدرة الكافية على مواجهة ذاته الشاعرة، ورصد الحالة غير الطبيعية، غير البشرية التي تتلبسها هذه الذات، أثناء انـهماكها في ما يمكن أن أسميه (عذاب الإبداع) !

ربما استطعت أن أقول أنني أعيش تجربتي، حتى اذا نضجت، أخذت أصعّدها مرة أخرى لأصوغها كلمات على الورق، ولكن عملية الخلق الفني ذاتها ليست سهلة أبداً على هذا النحو !

– "شيء أعمق من هذا بكثير ؟ "

– "بالضبط" ، يقولها بإيماءة .

فقال مُدّاركاً حالتي الحائرة التي علِقت فيها :

- بعض النقاد وصف هذه العملية بأنها أشبه بحالة الحمل والولادة عند المرأة ، ربما كانت أشبه بهذه الحالة إلى حدٍ ما .

والبعض الآخر قال عنها إنها ، إنها حالة جنون ، حالة انهيار ، حالة مغامرة ! ولعل فيها شيء من هذا أو ذاك ، يمكنني أن أقول أنها أشبه بحالة الوحي عند الرسل والنبيين ، أو لعلها كما يقول السورياليون، حلم يقظة ،أو يقظة بالغة الحدة!

إلا أن الرعشة المقدسة ، التي تأخذ الفنان حينذاك ، يستحيل التعبير عنها ، إلا ضمنياً ، ضمن هذا النسيج النفسي ، الموسيقي والفكري ، الذي يُسمى بالـ(قصيدة الشعرية) !

(بـودلير، الشاعر الملعون .. الجرح والسكيـن) !

-"ومَن مِن الشعراء المعاصرين أيضاً سكب عطره في روحك ؟ "

يفكر قليلاً بعد أن يرشف رشفات من كوب الماء ، ثم يقول وهو يضع الكوب على الطاولة :

- " هم كثر ، ولكن ، يحضرني شعراء بعينهم ..

يمكن أن أقول أنني كنت متألماً ، وربما ما زلت ، ومطعوناً إلى حد الاحتراق ! ومع إحساسي المتفاقم ، والهائل بعمق الألم ، وقتامة الواقع ، كان هناك شاعر واحد ، أو ربما شاعران لا أكثر ، خلاف جميع الشعراء العرب ، الذين قرأت لهم فيما بعد . الأول اسمه (أبو القاسم الشابي) ، والثاني (إلياس أبو شبكه)" .

أومئ برأسي ..

يقول :

- "لقد أعطاني الشاعر الأول ، نموذجاً كاملاً ، لمقدرة الشاعر الصادق في التعبير عن الألم ، وفلسفة الإيمان به ، إذ يقول :

وإذا ما استخفّني عبث الناس

تبسّمت في أسى وجمود

بسمةً مرةً كأني أستلّ

من الشوك ذابلات الورود ..

بينما أعطاني الشاعر الثاني ، نموذجاً رائعاً ، للقدرة على قهر الألم ، والاستعلاء عليه ، فيقول :

وحـمَلتُ تابُوتي .. وسِرتُ بمأتَمِي !

– " ياه ! شيء جميل حقاً وعميق ، جمال المفردة مع قساوة المعنى ! " ، أقول ، ثم أردف :

– "ومن أيضاً ؟ "

يفكر قليلاً ، ثم يقول :

– "أيضاً أجد الصور ، والموسيقى ، مضافاً إليهما روح الشعر ، ووهجه وحيويته ، في القصائد القليلة التي قرأتها لعبقري الشعر السوداني ، التجاني يوسف بشير . وأيضاً شاعر الطبيعة المصرية ، أحمد عبد المعطي حجازي . ويليهما ، إبراهيم ناجي ، ومحمود حسن إسماعيل ، وحسن كامل الصيرفي .. هؤلاء هم الشعراء" .

– "وماذا عن الشعراء المِهجريين ؟ " ، أسأله مُردفاً :

– "علمت أنك مفتون ، وممتلئ حد الإعجاب بهم " .

–"إيييه ! " ، يقول وهو يتنفس بهدوء وأريحية ..

– " هناك شيء ما غير عادي ، يشدني إلى هؤلاء الشعراء ، ويملؤني إعجاباً بهم .. نسيب عريضه ، فوزي المعلوف ، نعمه قازان ، إيليا أبو ماضي وميخائيل نعيمة

إن النكهة التي أحسها في فمي ، عقب قراءة أعمال الشعراء المهجريين عموماً ، تحيرني .. وأجدني أتساءل : هل هي نكهة الجديد ؟ أم هل هي امتزاج الجديد حقاً بالقديم ؟

أيضاً من الشعراء المهجريين ، شدني شاعر غريب ، حزين ، ومنكسر القلب مثلي .. جبران خليل جبران ..

أومئ مقطباً..

- " جبران ، شاعرُ التأملية ، والنزعة الفلسفية" !

- "تماماً" ، يقول وهو يهز رأسه ..

- "التأملات الفلسفية العميقة ، لجبران ، وعلى وجه الخصوص، في كتابه (النبيّ) تجعلني أحس بتقارب شديد ، بين أفكاره ، وأفكار نيتشه في (هكذا قال زرادشت)

وأتساءل : إلى أي مدى امتلأت رئتا جبران ، بمعطيات المناخ النيتشوي ؟ رغم ذلك فإن جبران هو الإنسان ، وهو الشاعر ..

وتوقفت طويلاً عند جبران ، في (العواصف) و (الأجنحة المتكسّرة) .. وأصابني إنبهار عظيم حينما وقعت في يدي ، قصيدته الطويلة (المواكب) ..

قلت حينها ، وأنا في بواكير صباي ، قد يجيء اليوم الذي أصبح فيه شاعراً ذا فلسفة ووجهة نظر في الكون ، وفي الحياة مثله .. " !

أبتسم وأومئ بما يوحي (أن حقاً ، جاء هذا اليوم) !

- " لماذا يا ترى ؟" ، يتساءل ..

- "هل لأن جبران كان مسيحاً ، يتعاطف مع المساكين ، والعبيد ، والفقراء ؟ وهو يحس أنه مجرد واحد من هؤلاء ؟ "

يتساءل مقطباً حاجبيه بعينين ضيقتين ، كأنه ينتظر مني إجابة

-ولا أعتقد ذلك- لذا مضى يقول :

- " ثمة شاعر آخر ، كاد يفقدني صوابي ..

شاعر فرنسي اسمه (شارل بودلير) .. إنه ذو طبيعة شعرية غير عادية .. قادرة على خلق الصور .. وتجسيد المشاعر والأفكار .. وتكثيف الأوضاع النفسية والاجتماعية ، في حالات فقدان تناسقها وانسجامها فنياً .. كما لديه بصيرة تنفذ إلى ما وراء الأشكال والمظاهر !

أذكر أنني في تلك المرحلة كنت غارقاً حتى الغيبوبة والدوار ، في عالم بودلير المخيف ، المعذب في (أزهار الشر) ! " .

-" بـُ...وود ... لـّ... ـير" ، أقوله بتعجُّب ..

- "لماذا بودلير هذا ؟ " ، أسأل .

يقول ، بل ينشد إنشاداً :

فـقـد كـان يـؤمـنُ في عُـمـقـه

بحـريـةِ الـسـُّـودِ والـكـادِحـين

وحـتـى الـطّـغـاة الـذيـن انـتـهـوا

وآلهة البشر السّاقطينْ !

ثم يقول في هدوء كأنه ينتقي كلماته :

- "لعل الأروع من كل ذلك .. أن معشوقته ومعذبته ، كانت جارية سوداء ، وكان اسمها (جان ديفال) ..

فها هو بودلير ، الأرستقراطي الأبيض ، يحطم الفوارق الطبقية ، واللّونية بطريقته الخاصة . سيّان كان من أجل الجسد ، أو من أجل الشعر ، إن شارل بودلير يقترب مني أكثر فأكثر كلما تعمّقتُ تجاربه ، وتمزّقاته الحِسيّة والوجدانية "!

يضع قبضة يده في فمه ..وكأنه يحملق في عَتمته ، يقول:

" بودلير ..

ذلك الشاعر المَلعون ..

الجُرحُ والسكين ..

الضحيةُ والجلّاد ..

إنني أنتمي إلى بودلير بصلةٍ ما " !

(التجربـة الصوفية)

تتشكل أمامنا دوائر فُقّاعية ، تتسع وتتمدد ، تلتحم ، لتتشكل منها دائرة فقاعية شفافة كبيرة ، تظل تتأرجح دون ثبات ، وكأن شخصاً خفي يأرجحها بين يديه ، ثم يبدو من خلالها مشهد ..

من زُقاقٍ طويلٍ ضيّق ، ينتهي عند ساحة تبدو أنها في سوق ، يظهر درويشان مُرتديان جلبابين من الدمور المرقع بالأخضر والأحمر ، يفوح منهما مسك العطور ، يسيران كما لو أنهما منوّمان مغناطيسياً ، وجهاهما مشدودان .. عيناهما منتبهتان كما لو أنهما تحدقان في شيء (ما وراء النظر) ، كل منهما يحمل مبخراً تتصاعد أبخرته ، فيتأرج الجو حولهما بعرف البخور .. يتقدمان .. يقفان عند منتصف الساحة ، ويبدءان في الدوران حول ذاتهما ، كأن محوراً غير مرئي يدوران حوله ، كانت الساحة شبه خالية حينما بدءا يتحاوران كأنما يسبران غور ذاتهما ، كأنهما في حوار أرواح ..

– "دنيا لا يملكها من يملكها" ، يقول الأول .

– "أغنى أهليها سادتها الفقراء" ، يقول الثاني .

– ثم يقول الأول ، "الخاسر من لم يأخذ منها ..

ما تعطيه على استحياء " .

– ويقول الثاني ، " والغافل من ظن الأشياء ..

هي الأشياء ! " .

وهكذا بدءا يتحاوران ويلفان حول بعضهما ، كما لو أنهما التقيا لتوهما ، والبخور يعبُق ..

– "تاج السلطان القاتم تفاحة" .

– "تتأرجح أعلى سارية الساحة" .

– "تاج الصوفي يضيء" .

– "على سجادة قش" .

يتوقف الآخر ، يشرع كلتا يديه كما لو يريد التحليق ، ويبدا أنه يخاطب الذين تحلقوا حولهما مشكلين حلقة كبيرة حول الساحة ، وهما في المنتصف مثل عقارب ساعة ضخمة :

– "صدقني ..

صدقني يا ياقوت العرش

أن الموتى ليسوا هم ،

هاتيك الموتى

والراحة ليست ،

هاتيك الراحة ! "

ومثله يفعل الأول ، وهو يحملق في الوجوه المتحلقة حولهم ، يتجه نحو أحدهم ، يقف في محاذاته ، وكأنه يخاطبه :

– "عن أي بحار العالم ..

تسألني يا محبوبي !

عن حوتٍ ،

قدماه من صخر

عيناه من ياقوت ! "

يتحرك ..

يُحملق في وجه آخر بدا مشدوهاً ، وقد ضاقت عيناه :

- "عن سحب من نيران

وجزائر من مرجان

عن ميت يحمل جثته

ويهرول حيث يموت ! "

"لا تعجب يا ياقوت ! " ، يصيح الآخر .."الأعظم من قدر الإنسان هو الإنسان ! "

والساحة قد ضجّت بالمتحلقين ، باعة متجولون ، تجار كبار ، صاغة ، تجار صغار ، محامون وقضاة ، عابروا سبيل ، شيوخ ، زنادقة ، لصوص ومسؤولوا دولة .. تصدر منهم جوقة وهمهمات مكتومة ، وترسل أعينهم نظرات حائرة ومتسائلة ..

- "القاضي يغزل شاربه لمغنية الحانه" ، يصيح الأول .

يتململ أحد القضاة ويعدل من ربطة عنقه الأنيقة. ثم يتنحنح مزيلاً حشرجة علقت بحلقه .

– "وحكيم القرية مشنوق" ، يصيح الثاني .

– "والقردة تلهو في السوق !

يا محبوبي .. " ، يصيح الأول .

يبرم تاجران شاربيهما وهما يهزان برأسيهما ، وينظران بعينين قلقتين ماكرتين إلى بعضهما .

– "ذهب المضطر نحاس

قاضيكم مشدود في مقعده المسروق

يقضي ما بين الناس

ويجر عباءته كبراً في الجبّانة " يقول الثاني .

يتحولان الى محورهما الأول ، دائرتهما الصغيرة ، ويلفان حول بعضهما ، والبخور ما يزال يعبق ..

– "لن تبصرنا بمآق غير مآقينا" ، الأول .

– "لن تعرفنا" ، الثاني .

– "ما لم نجذبك فتعرفنا وتكاشفنا" .

– "أدنى ما فينا قد يعلونا يا ياقوت" .

– "فكن الأدنى ..

تكن الأعلى ! "

-"وتجف مياه البحر" .

- "وتقطع هجرتها أسراب الطير" .

- "والغربال المثقوب على كتفيك" .

- "وحزنك في عينيك ..

جبال ومقادير ..

وأجيال يا محبوبي ! "

- "لا تبكيني ..

يكفيك ويكفيني ..

فالحزن الأكبر ليس يقال ! " ، يقول الثاني

بينما يبدءان في الخروج من وسط الحلقة ، يخرجان وسط الجموع المتحلقة مثل ريحٍ باردة تُحَس ولا تُمسَك ، مثل حزمتين من نور منسرب .. ووسط الجوقة والعيون المحملقة المتسائلة والأوجه الحائرة ،كانا يكرران العبارة الأخيرة وهما يتلاشيان ويخفت صوتهما رويداً رويداً :

- "فالـْــ.. حُــزنُ .. الـْــ.. أكبــر لــيس .. يُقــال ! " ، يقــول الأول .

- "الحزن ... الـْـ..... أكبرُ.........ليس ! " ، يصيح الآخر .

ثُمّ يتلاشيان ..

ثُمّ..

تتلاشى الفُقاعة الكبيرة الشفافة ، وكأن أحدهم ثقبها بإبرة !

– "ياقوت العرش"

يقول بصوت بطيء وهو يهز برأسه ، جاحظاً إلى أعلى كمن ينظر إلى طائر مُحلّق ، ثم يصمت لبرهة ، ثم يقول ..

– "ياقوت العرش ، رجل صوفي من اثيوبيا ، كنت متعجباً من اسمه . لعلني أقول أن القصيدة دارت ما بين هذا الرجل الصوفي وآخر هو المرسي أبو العباس ، من بلاد المغرب الأقصى ، تقمصت شخصيتهما .

كنت كلما مررت بأضرحتهم المتقاربة من بعضهما ، أتساءل فيما بينهما ، ونفسي : ماذا تعني ياقوت العرش !؟

وأردت في الآخر أن أدير حواراً فيما بينهما ، فيقول أحدهما للآخر ، أن هذه الدنيا فانية ولا يملكها من يملكها ، ويعني بذلك أنها في يده وليست ملكاً له. وهكذا ، كانت القصيدة ..

ونحن نبحرُ في رِحاب الصوفية ، أقول :

– "مملوكُكَ.. لكني .. سُلطانَ.. العُشّاق" ، أقولها في بطءٍ كأني أتحسس منها كل كلمة !

– "تُرى إلى أي مدى قد تجلى لك العشق هنا وأنت تُنصّبُ ذاتَك العاشقة سُلطاناً على العشاق ، بينما في ذات اللحظة ، أنت مملوك ! " .

يخرجُ صوتُه رخيماً مُمتلئاً:

– "ليس غروراً ، وليس تجاوزاً ، وليس ادعاءاً ، لكن الشاعر يجوز له بنفس القدر الذي يجوز للآخرين أن يعطي لنفسِه حق الحلم ، حق التصوّر ! فعندما يقول شاعر ما أنني سلطان العاشقين ، أو أنا سلطان الدراويش ، فتلك مجرد حالة ، موقف من الكون ، ومن الجمال ، مجرد حالة خاصة حالة ذاتيه ! " .

– "حقيقة ، وقد تعيشها بوعيك أو دون وعيك ، تماماً كحالة انجذاب الصوفي في المدارك الإلهية" ، أقول .

– "فالكثير من أعمالك تنضح بالمشاهد الصوفية ، ربما في اعتقادي هي طور ومرحلة من مراحلك الشعرية .. لعلك منجذب إلى تلك العوالم بصورة ما " .

يصمت هنيهة من الزمن ، يتنحنح ليزيل حشرجة علقت بحلقه وهو يعدُل من جلسته ويقول :

– "التجربة الصوفية بالنسبة لي ، جزء من كياني ، لقد عانيتها قبل أن أولد ، كما أسلفت . فالبيئة التي نشأت فيها ، كان لها الأثر الواضح في وضع البصمة الصوفية فيما كتبت ، كان والدي ، رحمه الله ، شيخ السجادة الشاذلية ، كما قلت أنت ، وقد كان أحد كبار رجالاتها ؛ لذا أستطيع أن أقول أنني عانيتها طفلاً ، وصبياً وحتى قبل أن أعرف الشعر ! بل لعلني عرفت الشعر من خلال معرفتي بها ! ففي مدينة الإسكندرية ، هناك في منزلنا في منطقة القباري ، وفي كل خميس كانوا يقيمون الحضرة ، فيأتي المريدون من كل نواحي الإسكندرية ، ليقضوا تلك الليلة مع والدي .. لعلي أذكر ذلك جيداً ، كانوا يقيمون حضرتهم ، يذكرون الله ، ويلقون القصائد ، والمديح ، وتأخذهم نشوة الذكر ، والوجدانيات الإلهية ، وأنا

طفل صغير أتطلع إلى البيارق الخضراء ، والدفوف وهي تدق ، والأبخرة الطاهرة وهي تعبق والأذكار وهي تفوح وتتموّج في الأفواه ، وفي العيون ، وفي القامات المتحركة . كل ذلك كان يجذبني لهذا العالم الصوفي . وأستطيع أن أقول أنني ومن هذا المنبع استقيت ، أو كانت مصادري الأولى اللا واعية ، أو اللا شعورية ، التي انحدرت فيما بعد في عدد كبير من قصائدي التي كتبتها ، أو بصورة ملحوظة تلك القصائد التي ضمنتها في مجموعتي الشعرية (معزوفة لدرويشٍ مُتجول) .

أومئ ، ونصمت للحظات ..

ثم يستأنف حديثه ..

– " لذلك يمكنني القول، أن لجوئي إليها، ليس لجوءاً طارئاً، أو جديداً ،وليس لجوءاً مفتعلاً ، أو ثقافياً، أو فلسفياً ، أو فنياً لمجرد البحث عن أفق جديد" .

يصمت كأنما يستحضر شيئاً ، ثم يقول مردفاً :

– "إن صوفية الشاعر ، أو شاعرية الصوفي ، الذي أتكلم عنه ، موقف إنساني إيجابي ، واعٍ ومدرك . وليس موقف الدرويش المنجذب إلى مجموعة من الأفكار المشوّشة ، والأحاسيس التجريدية العمياء ! " .

– " لعلنا يمكن أن نُطلق على الظاهرة الصوفية ، بأنها في حقيقتها ، التفاتة أكثرُ عُمقاً إلى الذّات ، وتحسُّس الجوهر الكامن فيها اندغامُ (الأنَا) في حضرةِ (الهُوْ) ! "

وأُردِف :

- "لعل الحديث يسوقني لمفهوم التجلّي والحُلول الإلهي .. تجلي الـ(هُوْ) في الذات الـ(أنَا) ، وهو حتماً ليس حُلولاً بمعناه الصريح ، هو -أو ما يمكن أن نُسمِيه - حالة من الهُيام والجّذب .. حالة من التجرُّد ، تجرد الصوفي من ذاته الطينية حين تلامس روحه مدارك الأنوار الإلهية ، أو السبحة الإلهية ، كما يقول المتصوّفة ، فيغرق في تلك الأنوار ، ويكون في حالة غيبوبة تامة" !

ثم رفعتُ رأسي ، فإذا به غارقاً في دموعه ..

يُنشد بخشوع جليل :

ويْحي .. وأنا أتلعثم نحوكَ يا مولايْ

أُجسِّدُ أحزاني ..

أتجرَّد فيكْ ..

هل أنت أنا ؟

يدُك الممدودة أم يديَ الممدودة ؟

صوتُكَ أم صوتي ؟

تبكيني أم أبكيكْ ؟

في حضرةِ من أهوى

عبثت بي الأشواقْ !

نهضتُ من مكاني .. دنوتُ منه ..

قبّلتُ رأسَهُ ، كان مُضيئاً مثل قِنديلْ .. قبّلتُ يَدَيهْ .

(آخـــر الحكاية) ..

- "مثلما كتبت يا سيدي عن قضيتك الإفريقية ، كقضية ارتكز عليها همّك ، وشبّ عليها وعيك .. كذلك كتبت عن القضية العربية وهموم الوطن العربي ، كونك فرداً داخل مداراته فمازجت بينهما، مازجت بين القضيتين في شعرك ،كما هو بائن " أقول

يفكر قليلاً ، يتنحنح ، ثم يقول :

- "لقد كتبت قصائد كثيرة ، عن إفريقيا كعموم ، وعن السودان على وجه الخصوص ، كذلك عن ليبيا ،ومصر ، وفلسطين ، ولبنان وعن مختلف البلدان ، لم أترك بقعة عربية ، لم أترك حادثة تحدث في مرحلة ما إلا وقد كتبت فيها .. ربما كنت تأثراً برؤى وبفعاليات شعراء سبقوني مثل أحمد شوقي .

فالشاعر في حقيقته ، صاحب تلك الأجنحة الخفاقة في مختلف آفاق بلاده ، سواء أكانت البلد التي ينتمي إليها انتماءاً مباشراً ، أو مختلف البلدان الأخرى التي تحيط بهذه الدائرة" .

- "إذن الشعر كان الصوت الرسالة ، كان الجمال ، وكان الإدانة ! "

- "كان ، وما يزال" ، يُردِف ..

- "الشعر ما بين التنقيب في روح الشاعر ، والتطهير " ، أقول وهو يرمقني بصمته ، "الشعر بالنسبة لك ، بالنسبة للفيتُوري ، ربما كان بمثابة راية الانتماء ، الانتماء للوطن ، للحبيبة ، وللبشرية ، والإحساس بالإنسانية والجمال والعذاب معاً ..

الشعر بالنسبة لك ، حدِّثني" !

يأخذ نفساً عميقاً ، ينفخه بصوت وهو يهز برأسه ، يضع على وجهه نصف ابتسامة ، بدت لطيفة نوعاً ما ، ويقول :

– "هو سؤال على بساطته يثقبك !

الشعر ، في نظري ، إنما هو عملية تنقيب في روح الشاعر ، عملية تطهير .. لعلني أيضاً متأثراً بذلك المصطلح الإغريقي القديم أن (الفن تطهير) . هو بالنسبة لي تطهير . مثل أي فنان ، مثل أي شاعر ، مثل أي إنسان أيضاً ، قد نولد فنجد أنفسنا ممتلئين بأشياء ليست لنا يد فيها . أن تشعر أنك ضعيف ، وأن تشعر أنك خائف وحزين ، أن تشعر أنك غريب ، وأن تشعر أنك مضطهد" !

يتوقف قليلاً ، يغمض عينيه هنيهة ، يأخذ نفساً طويلاً ، يبدأ يخرجه في بطء ، ثم يقول مواصلاً :

– "يمكن أن يولد شاعر وهو يحمل هذا الصفات ، هذه الخصائص ، هذه الأشياء المكونة لعالمة النفسي الداخلي . أنا كنت ، وربما حتى هذه اللحظة ، ورغم تغير ظروفي أشعر بتلك المشاعر !

وأنا تحت ضغط هذه الأشياء ، كان لا بد لي من أن أخرجها ، أخرجها ولكن في أشكال أخرى ، هي أشكال الفن . في صور أخرى ، هي صور الظواهر الخارجية . كانت عملية تطهير لنفسي أنا من تلك العُقد والرواسب ، تنحدر مع وراثات تأتي في دماء الإنسان وفي جيناته حتى تصل إليه حينما يكبر ، فيحس بها ، ويجد نفسه فجأة في مواجهة أقدار ليس من حقه إلا أن يحني جبينه أمامها ، أو يواجهها فتشرخ رأسه .

لكني لم أرد أن تشرخ رأسي ،بل أردت أن أستفيد من هذه التجربة !

أعود وأقول أن الشعر ليس فقط عملية تطهير ، إنه يمثل بالنسبة لي الرصاصة الخفية ، الرصاصة السريّة التي أطلقها في رأسي ، في قلبي ، في شخص يطغى على هذه الأمة ! أنا ضد الطغاة ، أي طاغية أينما كان ، أنا ضد تواجدهم على هذه الأرض !

كل طاغية صنم .. دُمية من خشب !

وليس فقط هذه الرصاصة ، أحس بأنه سيف في يدي ، أقطع به هذه الشواذ والأشياء الكئيبة المتناثرة في هذا العصر ..

سأكون ناراً .. فالحياة تريدني نارا !

فالشاعر ، بصوتِه ، بكلمتُه ، برؤاه للأشياء ، وموسيقاه التي تحفر في وجدان الناس ! تلك هي أدوات إبداعه ، أدوات مقاومته ، تلك هي أدوات التصاقه والتحامه بالأكوان ، وبالعالم والتاريخ " .

قال هذا الكلام ، وقد بدا عليه الارهاق ، في عينيه ، وفي تقاسيم وجهه ، وغصنا في صمت مَهيب ..

كان قد اتكأ بظهره على الكرسي ، شبك يديه ببعضهما ، يشبكهما حين ، ويفرقهما حين وكأنه يحركهما بإيقاع ما خفي لا أسمعه . بدت عيناه شاردتان وكأنه ليس هنا ، وبدا كيانه الآدمي شيئاً فشيئاً يميل نحو الشحوب !

– " سيدي ، ما قولك بمن هاجموك ، أعني من هاجموا شعرك ، من بعض الذين

عاصروك ، حين قالوا منتقدين : (كان يكتب شعراً تقريرياً لا علاقة له بالشعر العربي المعاصر) . وكان ذلك إبان مرحلتك الإفريقية ، التي تمخضت عنها دواوينك الثلاثة الأولى (أغاني إفريقيا ، عاشق من إفريقيا وأذكريني يا إفريقيا) ، ومسرحيتك الشعرية (أحزان إفريقيا) ؟ "

وبنبرة تشوبها مسحة حزن ، قال :

- "كان همي آنذاك أن أتخلص من هذا العذاب ! نعم قالوا ذلك ، وأذكر أنني ضحكت بحزن داخلي . ولم أكن أدافع عن نفسي ، حين قلت أني أحاول أن أطهر نفسي مما ورثته من عذابي لأنني أريد أن أخلُص إلى الواقع كإنسان في العصر !

لقد اختلفت الآن أساليب اقترابي من العمل الشعري عما كانت عليه بداياتي . وعلى مدى سنين طويلة ، كنت أجد نفسي متفجراً بمعاناة طامحاً لتجسيدها بغض النظر عن الكيفية التي تنصب فيها تلك المعاناة .

إنني مجموع مراحل من المعاناة الإبداعية والتجارب الفنية ، تكتسب كل مرحلة قيمتها بأن تضعها ضمن شروطها الزمانية والمكانية" .

قال كلامه هذا ، ولفنا صمتٌ مَهيب ..

تكّاتُ عقاربِ الساعة بدت متحفزة ، وهي تنتصب كمن يعلن عن نفسه في محاذاة السادسة والنصف مساء ..

ثمة إشارة هنا ..

ثمة أفول وشيك ..

قبة السماء عبر النافذة المشرعة ، بدت تغيب عنها تلك الزرقة المهيبة ، تتّشح شيئاً فشيئاً بكساءات قرمزية تصبغ سطحها الهائل ..

ثمة أطفال يتصايحون ..

ثمة شقشقات لطيور عائدات إلى أوكارهن ..

ثمة ريح شِتوية تتكاثف على ذاتها فتمنح الفضاء ما لا يُحتمل من برد ..

– "ماذا إن كان ثمة إدانات يمكن أن توجه إلى شعراء جيلك الذي أنت منه ؟ "

رميت إليه بالسؤال ، كقاضٍ يواجه متهمة .

قال بصوت واضح له صدىً خفيف يتردد في فضاء الغرفة ، وكأنه يلقي خطبة على جُمهور –ربما كان هذا الجمهور أنت يا قارئ– وكان حينها قد بدا أكثر شحوباً كأنك تراه من خلف ورقة مبتلّة بالزيت .. قال :

– " أنا أحد شعراء هذه المرحلة ، وإذا كانت ثمة من مآخذ ، أو اتهامات ، أو حتى إدانات ، كما قلت ، يمكن أن توجه إلى شعراء هذا الجيل الذي أنا منه ، فالحق أنا أحد أولئك المدانين ، إنني إنسان يتحرك راضياً أو مكرهاً ، ضمن دوائر هذا الخراب الهائل الذي تعيشه أمتنا العربية . كنت أتصور منذ سنين بعيدة ، وكنا ما نزال حينذاك ، نحمل باقات الأحلام داخل أجفاننا ، كنت أتصور أن من سوف يعيش تلك الرحلة إلى مسافات بعيدة منها ، سوف يكون من حظه أن يرى وجهاً آخراً مضيئاً ، من وجوه هذا العالم ، كنت أتصور أن وقتاً سوف يجيء وسوف نكون نحن بعض بُناتِه ، ضمن من سوف ينعمون ببعض الانتصارات ، والأيام الحلوة فيه ، ولكن ..

ها نحن ذا ، حيث بدأنا ..

وكأن لم نخطُ خطوة واحدة إلى الأمام !

القيود في الأرجل ، والسلاسل في الشفاه ..

أقصد الحرية التي حلمنا بها ، (نحن الشعراء) .

لم تتجاوز طفولتَها المضحكة !

وكانت تلك آخر كلماته ..

آخـــــــر الحكاية ،

وتلاشــــى .

.

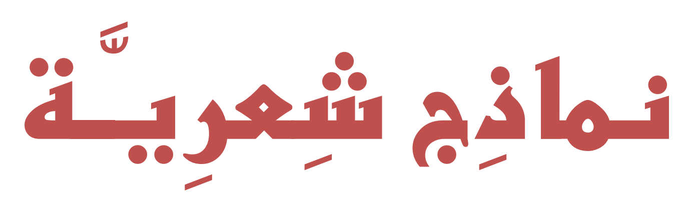
.

..

موافي يوسف

٢٣ -١١-٢٠١٥

ود مدني


نماذِج شِعريـّـة

البعث الإفريقي *

إفريقيا ..
إفريقيا استيقظي ..
استيقظي من حلمك الأسود
قد طالما نمت .. ألم تسأمي ؟
ألم تملِّي قدم السيِّدِ ؟
قد طالما استلقيتِ تحت الدجى
مجهدة .. في كوخك المجهدِ
مصفرّة الأشواق ..
معتوهــــــــــة
تبني بكفيها ظلام الغدِ
جوعانة تمضغ أيامها
كحارس المقبرة المقعدِ
عريانة الماضي ..
بلا عزة تتوج الآتي ..
ولا سؤددِ !
* * *
إفريقيا ..
إفريقيا استيقظي ..
استيقظي من ذاتك المظلمة
كم دارت الأرض حواليك ..
كم دارت شموس الفلك المضرمة
وشيّد الناقم ما هدّمه ..
وحقّر العاب ما عظّمه ..
وأنت لا زلت كما أنتِ ..
كالجُمجمة المُلقاةِ ..
كالجمجمة ..

واعجباه ألم تفجّر شرايينك سُخرياتهم ..
يا أمَـــــــــــه !

* * *

إفريقيا ..
إفريقيا استيقظي ..
استيقظي من نفسك القابعة
أكُلّ ما عندك أن تصبحي مزرعة
للأرجل الزارعة
أكل ما عندك أن تلعقي أحذية المستعمر اللامعة
أكل ما عندك أن ترقدي
خاملةً .. خائرةً .. خاضعه
أكل ما عندك أن تضحكي
هازئة بالقيم الرائعة
اكل ما عندك أن تُصدّري قوافل الرقيق
يا ضائعة !

* * *

إفريقيا ..
إفريقيا النائية ..
يا وطني .. يا أرض أجدادي
إني أناديك ..
ألم تسمعي صراخ آلامي وأحقادي !
إني أناديك ..
أنادي دمي فيك ..
أنادي أمتي العارية ..
إني أنادي الأوجه الباليه
والأعين الراكدة .. الكابيه ..
فويك إن لم تحضني صرختي
زاحفة من ظلمة الهاوية
عاصفة بالأبيض المعتدي عليك ..

يا إفريقيا الغالية !

*** * ***

لتنتفض جثة تاريخنا
ولينتصب تمثال أحقادنا
آن لهذا الأسود .. المنزوي
المتواري عن عيون السنا
آن له أن يتحدى الورى ..
آن له أن يتحدى الفنا ..
فلتنحنِ الشمسُ لهاماتنا ..
ولتخشعِ الأرضُ لأصواتِنا ..
إنا سنكسوها بأفراحنا ..
كما كسوناها بأحزاننا
أجل .. فإنا قد أتى دورنا
إفريقيـــــــــا
إنا أتى دورنا ..

---

* (ديوان أغاني إفريقيا ١٩٥٥م)

لو ماتت في شفتيّ الكلمات *

زمني قاسٍ ..
زمني جلّادٌ لا يرحمْ
زمني وجهٌ يتفجّر من شفتيه الدم
زمني يا أخت هوايا أصمْ
يخنقني كي لا أتكلم
وانا إنسان يتألّم
وأنا أبصر ، أسمع ، أعلم
أعلم أن الحرية تحكمها القضبان
أن شعوباً ما زالت تتبنى الأوثان
أن الثورات تموت وتولد في الإنسان
أعلم أني لا شيء ... سوى ظلمات
لا شيء ... سوى روح مظلم
لو ماتت في شفتيّ الكلمات
ولو أطبقت عليها الفمْ

* * *

زمني يا أخت هوايا حزين
صوتٌ نبيٍّ ... وصراخٌ سجين
وصباحٌ ... ومخالبُ تنين
تقطُر بالدمِ فوق الآفاق الشرقية
لتظل الشمسُ وراء العالمِ منسيّه
ليظل الإنسانُ الخلّاق
ابنُ الأيام المغسولة
ببطولات القرن العشرين
يسّاقطُ ملويّ الأعناق
تحت الأقدار المجهولة
ويموت ....

وفي كفّيه الطين

* * *

زمني ... يا أخت هوايا هرِمْ
في داخله جثمانُ إلـه
ما زالت تومئُ لي عيناه
أن أسجدَ ...
لكني أعلمْ
أن حرير العالم مهما غطّى الأموات
ستظل عرايا دون حياة
ستظل رُفاتاً يتهشّم
لو داست فوق ثراه قدم

* * *

زمني ... يا أخت هوايا عجبْ
مَوسِمُ جوعٍ ... وجبالُ ذهبْ

---

* (ديوان عاشق من إفريقيا ١٩٦٤م)

رسالة إلى الخرطوم *

في الأرض حيران ضائع

دامٍ كثير المواجِع

أرنو إليك .. وأعدو

كالطفل في كل شارع

وأرتمي فوق حزني

وفوق شوك المضاجع

وبيننا يا بلادي ..

ستَارة من مدامِع

وصورة يا بلادي ..

قد لوَّنتها المفاجِع

وحائط يا بلادي ..

من فوهات المدافِع

***

دمعٌ وأفقٌ ونار

والموتُ عُريان جائع

والشعب أعزل ..

شعبي هذا الجريح المصارع

رأيته وهو صدر عارٍ

يسد الشوارع

يمشي .. وتمشي الضحايا

أمامه والطلائع

عمائمٌ ووجوهٌ

كأنها الفجرُ ساطِع

وأذرعٌ كالصواري

كمئذنات الجامِع

تلتف حول المصانع

تمتد حول المزارع

تصون عزة شعب

طالت عليه المفاجع

بالأمسِ .. أمسُ وقلبي

بردان خلف الأضالع

رأيت شعبي يغني

للشمس أحلى المقاطع

والشمس في غسق الليل

في رؤوس الأصابع

رأيتكم يا حبيبي

رغم الفيافي الشواسع

سمعتكم يا حبيبي

ولم أزل بعدُ سامِع

* * *

قالوا انتفضت ..

ومزقت عنك سود البراقع

قالوا تفجرت أفقاً

من السيوف القواطع

قالوا وطهّرت نعليك

من جلود الضفادع

قالوا وما زلت تبني

العلا .. وتبني الروائع

قالوا .. وتوجتُ رأسي

زهواً بما أنت صانع

وقلت ما كان شعبي

للبطش يوماً براكع

ولم يكن مجد شعبي

لُمشترٍ أو لبائع

فالشعب كالأفق

في صدره تنام الزوابع

والشعب كالنيل ..

في عمقه انفعال المنابع

راح الطغاة المساكين

وانتهوا في المخادع

والشعب ما زال يمشي

ويسترد المواقع ..

---

* (ديوان أذكريني يا إفريقيا ١٩٦٥م)

ياقُوت العرش *

دنيا لا يمِلكها من يملكُها

أغنى أهليها سادتها الفقراء

الخاسرُ من لم يأخذ منها

ما تعطيه على استحياء

والغافلُ من ظنَّ الأشياءَ

هي الأشياء !

* * *

تاجُ السلطانِ القاتم تُفّاحه

تتأرجحُ أعلىساريةِ الساحة

تاجُ الصُوفيّ يضيء

على سجّادة قش

صدقني يا ياقوت العرش

أنّ الموتى ليسوا هُم

هاتيكَ الموتى

والراحةُ ليست

هاتيكَ الراحة

* * *

عن أيّ بحارِ العالمِ تسألني يا محبوبي

عن حوت

قدماه من صخرٍ

عيناه من ياقوت

عن سحبٍ من نيران

وجزائر من مُرجان

عن ميتٍ يحمل جثتَه

ويُهروِلُ حيثُ يموت

لا تعجب يا ياقوت

الأعظمُ من قدرِ الإنسانِ هو الإنسان

القاضي يغزُلُ شاربه لمغنّية الحانه

وحكيم القرية مشنوق

والقردة تلهو في السوق

يا محبوبي ..

ذهبُ المضطرِّ نحاس

قاضيكم مشدودٌ في مِقعده المسروق

يقضي ما بين الناس

ويجرُّ عَباءته كِبراً في الجبّانة

* * *

لن تبصرنا بمآقٍ غير مآقينا

لن تعرفنا

ما لم تجذبك فتعرفنا

وتكاشِفنا

أدنى ما فينا قد يعلونا يا ياقوت

فكن الأدنى

تكن الأعلى فينا

وتجفُّ مياهُ البحر

وتقطعُ هِجرتها أسرابُ الطير

والغِربالُ المثقوبُ على كتفيك

وحزنُكَ في عينيك

جبال

ومقادير

وأجيال

يا محبوبي لا تبكيني

يكفيك ويكفيني

فالحزنُ الأكبرُ ليس يُقال

---

* (ديوان معزوفةٌ لدرويش متجوِّل ١٩٧١م)

قراءةٌ في عيونٍ يغسلها الدّمع ! *

تصبحين التوقّع والحلم

حيث تغيم سماء التوقع والحلم ..

حيث تغوص عصور الرؤى

والغرابة

وتصير المسافات والريح أقبيه ..

والوجوه التي تعرفين تغيب ..

وتوغل فيها جذور الغياب ..

ويسكب ظلمته ألف باب وباب ..

تصبحين كتاب الفرح

تصبحين كتاب الكآبة

ودفوف القوافل ..

والهودج العربي المسافر

فوق رمال الصحارى ..

تصبحين البروق التي ترسم

الضحكات ..

البريئة..

مِلء العيون السهارى

تصبحين الأيادي التي

نقشت سقف لبنان بالشمس ،

والشعر والأبجدية

والأغنيات التي اختبأت في

كهوف الجبل

تصبين كتاب الهوى والغزل

لمُغَنٍ حــزين ..

يجيء من الغيب ..

تثقُله الذكريات ،

وتركض في جانبيه

رياح الأزل

* * *

تصبحي المدائن والجزر الساحلية

تُرضِعُ أطفالها في ظلام الظهيرة

تَشمَخُ فوق العذاب

وتبصُقُ فوق الجريمة

تصبحين قرار الإياب

ورفض الهزيمة !

* * *

أترينْ ؟

أأبصرتِ كيف يصير الزمان ..

قطاراً بطيئاً ..

مداراً بلا غاية ..

والكبار .. الكبار صغاراً

وزهور الخيانة

فوق الرؤوس الحليقة غاراً !

* * *

أترينْ ؟

أأبصرتِ ، كيف يبيعون

في السوق

آباءَهم ..

وجماجمَ أبطالهم ..

كيف يلتمع الوحل ، حتى

تُعلِّقه الأمهات قلائدَ فوق الصدور

كيف تلفُظُ أحشاءها

كل تلك القبور !

* * *

آه ..

أيّتُها النجمة الموسمية ..

أيتها الكلمة المريمية ..

ان حاكم تلك المدينة ..

والدركي الذي جعل الشمس

سجادة من دماء

وأقواس نصرٍ على البحر ..

خانوا القضيـــــة !

* * *

آه .. يا طفلتي المريمية !

أي أرضٍ ستحملهم في غدٍ

حين تلمسُ أجفانُ عينيك

وجهَ الذي تعرِفينْ !

وتنبُتُ كفَّك زنبقةً

في جِراحِ الضحية !

* (ديوان ابتسمي حتى تمرّ الخيل)

القيامة *

لتُعانِق نُبوءَتها هذه الرُّوحُ ..

وَلْتنتصِب أفقاً مُشمساً ، خيمةُ الطِيبِ والخُبز ..

وَلْتستحِل فوهاتُ البنادق

في كفِّ حاملها ، نهراً أبيض

يتدفقُ عبر الحقول

وَلْيظل اكتمالُ اكتمالِكَ فوق مدار الفصول

أيُّها البشريُّ ، الإله ، الرسول

القرابين ، والشوقُ مِنَّا

ومنكِ الرضى والبشارة

صحراءُ نخاسية ، نحن لولاك ..

أزمنةٌ من حجاره

-١-

من جحيم الطقوس ، ومن خزف الكلمات

ومن دوران الفصول

سقوف معابدنا

وطعام موائدنا

أبداً ننحني ضارعين ، على بقع الدم ..

تمتد فوق سواعدنا

وحرير وسائدنا

تتداخل فينا الهزائم ، هاربة من عيون

الذي سوف يأتي

ونُغَطّي الخطايا ، فتفضحها أعينُ الأمهات

-٢-

مباركةٌ خطواتُك ..

يا من ستأتي على هذه الأرض ، مخترقاً جبل السر

هالتك القدسية حولك

مجد السماوات حولك

تأتي كما جئت من قبل

تغسل عنا الجريمة والعقم

ها أنت ذا تتلمّسُ موتاك ..

تنفضُ أجسادَهُم من تُرابِ السنين

تُبارِكُ أيامَهُم .. تستديرُ مَهِيب الكآبة ..

قلبُكَ لا ينبُتُ الِحقد

مجدُكَ لا يرِثُ الموت

وجهُكَ لا يلبَسُ الكِبرِياء

-٣-

يسألونك .. ؟

- كلّ مياه المحيطات .. كلّ السحاب

الذي يعبُر الأفق ، منحدراً

في مدى الأفق

كل خوابي العصور العتيقة ..

لا تطفئ العطش المتجسِّد في القلب ..

.. تطفئه دمعةٌ ، تتألّقُ عاريةَ الطّهر

في رُدهةِ الحُب

-٤-

- لن تجدوني ..

كما تجدون أساطيرَ من متَّلُوني

نُقُوشاً على حجر

أو تصاويرَ مُبهمةً في كتابٍ قديمْ

أنا في الكائناتِ وفيكم أُقيمْ ..

-٥-

- يسألونك .. ؟

- كانت سياطُ الخِيانةِ ، تجلد أرواحهم ..

وتحاصرهم

كنت أرحم آلامهم ، وأنا مُغْرِقٌ في سُكوني

ولهذا غفرتُ خطيئَتهم

ورثيتُ لِمن قتَلُوني !

-٦-

- يسألونك .. ؟

- هذا اعترافك أنت ..

الشهادة في فمك الملكيِّ

وإذا نارك اشتعلت في يدَي ..

فالذي اختارني ليس أنت ..

ولكنه (أنا) يقسو علَي .. !

-٧-

فوجئتْ أورشليم ..

طار طائرُها عالياً .. وخطّى النُجوم ..

وتفاجأ ثانية

بالسُقوطِ العظيم !

-٨-

- يسألونك .. ؟

- مَنْ لَمْ يكُنْ خائني هذه الليلة القمرية

فليأتِني تارِكاً قوسَه ، وكنانتَه

وحُسامَه

سوف أبعثه سيدا

أنا مجدُ القيامة !

-٩-

أيُّها البشر الإلهي

الذي قهر الحقد ، والموت ، والكبرياء

ابتسم للذين انتهوا فيك

وابتدأوا فيك

قل كلمتك .. كن رجاء لهم ..

وأجب سائليك ..

أنت يا من وهبتَ دمَك ..

خَمْرةً ، وخلاصاً لأرواحهم

وبكيتَ على قاتليك !!

---

* (ديوان شرقُ الشمس .. غربُ القمر ١٩٨٥م)

إلى ..

عبد الخالق محجوب ورفاقه *

حين يأخذك الصمت منا

فتبدو بعيداً ..

كأنك راية قافلة غرقت

في الرمال

تعشب الكلمات القديمة فينا

وتشهق نار القرابين

فوق رؤوس الجبال

وتدور بنا أنت ..

يا وجهنا المختفي خلف ألف سحابه

في زوايا الكهوف التي زخرفتها الكآبة

ويجُرُّ السؤالُ ، السؤال

وتبدو الإجابةُ نفس الإجابة

* * *

ونناديك ..

نغرس أصواتنا شجراً صندلياً حواليك

نركض خلف الجنائز ..

عارين في غرف الموت ..

نأتيك بالأوجه المطمئنة

والأوجه الخائفة

بتمائم أجدادنا ..

بتعاويذهم حين يرتطم الدم بالدم ..

بالصلوات المجوسية الخاطفة

بطقوس المدارات

بالمطر المتساقط في زمن القحط ..

بالغاب ، والنهر ، والعاصفة !

* * *

قادماً من بعيد على صهوة الفرس ..

الفارسُ الحلم ذو الحربة الذهبية

يا فارس الحزن ..

مرِّغ حوافر خيلك فوق مقابرنا الهمجية

حرِّك ثراها ..

انتزعها من الموت ..

كل سحابة موت تنام على الأرض

تمتصها الأرض ..

تخلقها ثورة في حشاها

انتزعها من الموت يا فارس الحزن ..

.. أخضر ..

قوسٌ من النارِ والعُشب

أخضر ..

صوتُك ..

بيرقٌ وجهِك ..

قبرُك ..

- لا تحفروا لي قبراً

سأرقدُ في كل شبرٍ من الأرض

أرقدُ كالماءِ في جسدِ النيل

أرقدُ كالشمسِ فوق حقول بلادي

مثلي أنا ليس يسكن قبرا

لقد وقفوا ..

ووقفتَ ..

- لماذا يظن الطغاةُ الصِّغار

- وتشحب ألوانهم -

أن موتَ المناضلِ موتُ القضية

أعلم سر احتكام الطغاة إلى البندقية

لا خائفاً ..

إن صوتي مِشنقة للطغاة جميعاً

ولا نادماً ..

إن روحي مُثقلة بالغضب

كل طاغية صنم .. دُميةٌ من خشب

.. وتبسمت

- كل الطغاة دمىً

ربما حسب الصنم ، الدميةُ المستبدة

وهو يعلق أوسمة الموت

فوق صدور الرجـــــــال

انه بطلاً ما يزال

- وخطوتُ على القيد ..

- لا تحفروا لي قبـــرا

سأصعد مشنقتي

وسأغلق نافذة العصر خلفي

وأغسل بالدم رأسي

وأقطع كفي ..

وأطبعها نجمةً فوق واجهة العصر

فوق حوائط تاريخه المائلة

وسأبذر قمحي للطير والسابلة

* * *

قتلوني ..

وأنكرني قاتلي

وهو يلتف بردان في كفني

وأنا من ؟

سوى رجل واقف خارج الزمن

كلما زيّفوا بطلاً

قلتُ : قلبي على وطني !

* (ديوان أقوال شاهد إثبات)


إنفوغرافيك
محمد الفيتوري
لقبه شاعر افريقيا والعروبة
ولد في في 24 نوفمبر
تشرين الثاني عام 1936م
في مدينة الجنينة بولاية غرب دارفور
من أوائل الشعراء الذين كتبوا
بطريقة التفعيلة التي خرج فيها
عن القواعد الكلاسيكية القديمة
كُتب في شعره ما لا يقل
عن 20 رسالة دكتوراة
الشاعر العربي الوحيد الذي كتب
عن أفريقيا أربعة دواوين كاملة
أصغر شاعر يتم تدريس بعض أعماله
ضمن مناهج آداب اللغة العربية في
مصرفي ستينيات وسبعينيات القرن الماضي
أسقطت منه الجنسية السودانية في
العام 1974 في عهد الرئيس نميري
«حصل الفيتوري على «وسام الفاتح
الليبي و «الوسام الذهبي للعلوم والفنون
والآداب» بالسودان
لدية 17 ديوان شعر و 3 مسرحيات
توفي في 24 / 4 / 2015 م
مجلة ثقافية شهرية مستقلة
جيل جديد
GEELGADED.COM
@ToMeY_ALqatri

مرجِعيّـات

– ديوان أغاني إفريقيا .
– ديوان محمد الفيتوري ، المجلّد الأول .
– ديوان محمد الفيتوري ، المجلّد الثاني ، المقدمة ، بقلم : د. مُنيف موسى
.
– ديوان شرق الشمس .. غرب القمر ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، دار الشروق .
– الدراما والهوية في شعر محمد عبد الحي ، د. فضل الله أحمد عبد الله ، المقدمة ، بقلم : د. عثمان جمال الدين .
– حوار للشاعر الفيتوري بجريدة (الوطن الثقافي) .
–لقاء للشاعر الفيتوري بقناة (ام بي سي) .
– لقاء للشاعر الفيتوري مع الأستاذ عمر الجُزلي ، برنامج (أسماء في حياتنا) ، تلفزيون السودان .
– لقاء للشاعر الفيتوري مع الراحلة ليلى المغربي ، برنامج (مشوار المساء) ، تلفزيون السودان .

سبع ساعات من رفقة النهر



.. هنا توقف لحظة عن الحكي
صمت، كأن الصمتَ أكثرُ امتلاءً
. من ما سيقوله

استمعتُ وأنا أجولُ بخيالي في
.. تفاصيلِ الحكاية

تنهّد عميقاً ، أرقبه في صمت ..
يُخرجُ عُلبةَ سجائره مرة أخرى ،
يأخذ واحدةً ، تستقر بين شفتيه
، يُخرج من جيب بذلته العُلويّ
زناداً راقياً ، يضغَطُ عليه ،
ينَطلقُ لهبُه يأكل مقدمة رأس
تلك السيجارة ، ثم يجذُبُ منها
نَفَساً عميقاً ، يأخذ دورته ثم
ينفُثه ، يتمدّد دُخانها مُحلقاً
بأشكالٍ رُماديةٍ في الفراغ ، وقال
:

، وكان ذلك هو حديثها"
فعندها ، عندها فقط ، شعرت
! وكأنني أقف على صِراط
.. على صِراط
على صِراط ما ، بين الحريّة
! والعبوديّة
، فهذه الجدّة مُستعبَدَه
، وهذا الجدُّ تاجرُ رقيق
وأنا طفل صغير لا يعرف ما
معنى العبودية .. ولا معنى الحرية
!

فشعرت حينها بحيوات مرعوبة ،
" ! تصرخ في داخلي

جيل جديد

سبع ساعات من رفقة النهر

PDF

omer elmlik
GRAPHIC DESIGNER

تصميم الغلاف/ عُمَرُ مُصطفى المَلِك
3omerelmlik@gmail.com

PDF